
اجاثا كريستي
موعد في بغداد



أجاثا كريستي

{1976 - 1890}

–الكاتبة التي ترجمت رواياتها إلى **103** لغات.

– بيع من كتبها أكثر من **900** مليون نسخة باللغة الإنجليزية وحدها.

– كاتبة روايات بوليسية، ولدت في إنجلترا، تتميز عن جميع الروائيين البوليسيين، مما نصَّبها ملكة عليهم جميعًا. تميَّزت أيضًا بأنّ أشخاص رواياتها أشخاص عاديّون، ولكنّهم تعرضوا في الرواية لظروف أزالت القناع الحضاري عن الوحوش القابعة في أعماق كل إنسان. كذلك لم تلجأ الكاتبة العظيمة إلى عنصر الجنس في رواياتها، على عكس ما اتبعه الآخرون. ولم تهدف إلى الإثارة، ولا تلجأ إليها. ورواياتها تضمَّنت أيضًا أهدافًا إنسانية فحواها أنّ (الجريمة لا تفيد) وأنّ الخير هو المنتصر في النهاية.

موعد في بغداد
They Came to Baghdad

«فيكتوريا جونز» –التي تعمل على الآلة الكاتبة– مفعمة بالمواهب: متكبرة، جميلة وكاذبة ولا تخشى شيئًا. عندما تقابل «إدوارد» في وقت تناول الغداء تعجب به في الحال وهذا يرجع بالأحرى إلى لا وعيها وشجاعتها. هل لابد من أن يسافر إلى «بغداد» في اليوم التالي؟ إنها ستلحق به. مثل هذه التفاصيل لن توقف «فيكتوريا».

للأسف! لم تجد أثرا لـ«إدوارد» لدى وصولها إلى «بغداد». كيف تتصرف إذن؟ كيف تتصرف وهي تشعر بالضياع في الطرف الآخر من العالم دون أي فلس ودون أن تعرف أي أخبار عن هذا الرجل الذي قطعت الرحلة من أجله؟ كيف تتصرف عندما يموت رجل مطعونا بخنجر بحجرتها في الفندق؟ شعرت «فيكتوريا» بالجنون لبعض الوقت. لكن بعد هذا كان جميلا أن تجد نفسها مشتركة في مغامرات لمخبرين سريين! لكن في هذه المرة ربما تكون قد شططت بعيدًا..

ثمن الكتاب

لبنان	5000 ل.ل.	قطر	10 ريالات
سوريا	100 ل.س.	عُمان	1.5 ريال
الأردن	2 دينار	مصر	10 جنيهات
السعودية	10 ريالات	المغرب	30 درهما
الكويت	1 دينار	ليبيا	5 دنانير
الإمارات	10 دراهم	تونس	4 دنانير
البحرين	1.5 دينار	اليمن	400 ريال

ISBN 995338255-7



موعد في" بغداد"

بونارد الأسطه

يقدّم

الرواية المعرّبة

موعد في "بغداد"

(85)

تاليف الكاتبة والأديبة العالمية

أجاثا كريستي

تعريب الأديب

عمر عبد العزيز أمين

الناشر

دار ميوزيك للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع ش. م. م

الإدارة العامة والتوزيع

تليفون 666 212 9 961 00   فاكس 665 212 9 961 00

ص.ب 374 جونيه – لبنان

www.inter-press.org   Email:info@inter-press.org

وكلاء التوزيع

المركز الدولي – دار البشير

تاليف

Agatha Christie

الاسم الأصلي للكتاب

They Came to Baghdad (1951)

الغلاف بريشة الفنان

صلاح عناني

الفصل الأول

غادر الكابتن "**كروسبي**" مبنى البنك، وعلى وجهه من مظاهر الارتياح ما يبدو على وجه رجل صرف لتوه شيكًا بمبلغ كبير، واكتشف في ذات الوقت أن له رصيداً أكبر مما كان يظن.

كان قصير القامة، أحمر الوجه، مشوش الشاربين، عسكري المظهر، يؤثر الثياب ذات اللون الصارخ، ويحب النكتة الطريفة. ولكنه كان – إلى جانب ذلك – إنسانًا مهابًا ومحبوبا.

وسار الكابتن "**كروسبي**" في شارع أطلق عليه اسم "**شارع البنك**"؛ لأنه يضم أكثر المؤسسات المصرفية في "**بغداد**"، وأحس على الفور بالفارق بين الجو في داخل البنك وبينه في خارجه.

ففي البنك، كان الهواء مكيفًا والنور هادئًا، والسكون شاملاً فيما عدا الآلات الكاتبة، أما الشارع فكان يسبح في أشعة الشمس الحارقة، ويعج بالمارة وقد امتلأ جوه بالأتربة والغبار، واختلط فيه ضجيج السيارات بصياح الباعة الجائلين رجالاً ونساء وأطفالاً، وهم يعرضون على المارة بضائعهم من حلوى وبرتقال وموز وشفرات للحلاقة. وكان الزحام شديداً، والشارع غاصا بالسيارات والعربات والحمير والمشاه، فراح الكابتن "**كروسبي**" يشق طريقه وسط الزحام، وتوقف لحظة ليبتاع جريدة من أحد باعة الصحف، ثم انحدر في شارع "**الرشيد**" وهو الشارع الرئيسي الذي يشق المدينة بمحاذاة نهر "**دجلة**".. على مدى ستة كيلو مترات.

وفي الطريق، تمهل الكابتن "**كروسبي**" في سيره قليلا؛ ليتصفح الجريدة، ثم واصل سيره، وبعد أن اجتاز نحو مائة متر، انحرف يمينًا.. وسار في زقاق ضيق يؤدي إلى فناء واسع وسط مبنى كبير، وانتهى إلى باب في هذا الفناء عليه لافتة نحاسية، ففتح الباب ودخل، ووجد نفسه في غرفة أعدت لتكون مكتبًا.

وقف لاستقباله شاب عراقي كان يكتب على الآلة الكاتبة، وقال وعلى شفتيه ابتسامة ترحيب:

– طاب صباحك يا كابتن.. هل من خدمة أؤديها لك؟

– هل السيد "**داكن**" في مكتبه؟ حسنًا.. إنني أعرف الطريق. وفتح بابا. وارتقى سلما، ومشى في دهليز طويل يحتاج إلى النظافة.. وطرق بابا في نهاية الدهليز، وسمع صوتا من الداخل يقول:

– ادخل. ودخل الكابتن "**كروسبي**" غرفة فسيحة ليس بها من الأثاث سوى مكتب ضخم، وأريكة كبيرة، ومائدة عليها موقد، وآنية مليئة بالماء. وكان يجلس أمام المكتب رجل مهدل الثياب.. ويبدو كإنسان يائس أتلف حياته، واستسلم لمصيره. وتبادل الرجلان التحية، وقال "**داكن**":

– هل عدت من "**كركوك**"؟ فاوما "**كروسبي**" برأسه علامة الإيجاب، ثم انثنى إلى الباب فأغلقه بعناية. وعندما عاد، بدا أكثر تواضعًا، وأقل ثقة بنفسه مما كان عندما دخل، بينما اعتدل "**داكن**" في جلسته وبدا أكثر أهمية من زائره. قال "**كروسبي**":

– هل من جديد يا سيدي؟

– نعم.. وكانت بين يدي "**داكن**" – حين دخل عليه "**كروسبي**" – رسالة بالشفرة يعالج حل رموزها، وما إن فرغ من ذلك حتى قال:

– سيعقد الاجتماع في "**بغداد**". وأشعل عود ثقاب، وأحرق الورقة التي سجل عليها ترجمة الرسالة، حتى إذا تحولت إلى رماد فركها بإصبعيه قائلاً:

– لقد وقع اختيارهم على "**بغداد**" في النهاية، وتقرر أن يعقد الاجتماع في العشرين من الشهر القادم.. ومن واجبنا أن نعمل على أن يظل مكان الاجتماع وموعده سرًا لا يعلم به أحد.

– إن الناس في الشوارع يتناقلون هذا السر منذ ثلاثة أيام.. فابتسم "**داكن**" وقال:

– هذا صحيح، فالأسرار في بلاد الشرق ملك للجميع.. ألا ترى ذلك أيضًا يا "**كروسبي**"؟

– نعم يا سيدي. بل وأستطيع أن أضيف أن الأسرار لا وجود لها في الشرق أو في غيره، وقد تبينت خلال الحرب أن صبي الحلاق في "**لندن**" يعرف من الأسرار

أكثر مما تعرف القيادة العامة.

– على كل حال، إذا كان المؤتمر سيعقد في "**بغداد**"، فلابد أن يعلم الناس بأمره قريبا.

– وهل تعتقد يا سيدي أنه سينجح؟

– إذا كان الغرض من المؤتمر هو استعراض العضلات، ومناقشة المبادئ والإيديولوجيات فمن المحقق أنه سيفشل، وسينتهي كغيره من المؤتمرات في جو من الريب والشكوك. ولكني أعتقد أن هذا المؤتمر سوف يختلف عن سابقيه؛ بسبب ظهور عنصر طارئ. ولو صحت القصة المذهلة التي رواها "**كارمايكل**".. وكفّ عن الكلام فهتف "**كروسبي**":

– لا يمكن أن تكون القصة صحيحة. أنت نفسك قد وصفتها بأنها مذهلة. فصمت "**داكن**"، ومرت بذهنه ذكريات لا يمكن لمثله أن ينساها. وتذكر تعقيبه حين قال: إما أن يكون أفضل جواسيسي قد أصابه مس من الجنون، أو يكون قد قال الصدق.. وفي هذه الحالة... واستطرد "**داكن**" يقول:

– كانت جميع القرائن تؤيد صدق رواية "**كارمايكل**".. ولذلك انطلق للبحث عن الأدلة التي تؤيد كلامه.. ولا أدري أأخطأت أم أصبت حين سمحت له بالرحيل. ولكنه إذا عاد إلى "**بغداد**" في اليوم العشرين من الشهر القادم... وأعاد رواية قصته، وقدم الأدلة.. فسيـ....

– الأدلة؟!

– نعم. الأدلة.. لقد حصل عليها.

– وكيف علمت؟

– لقد حمل إلى "**صلاح حسن**" الرسالة المتفق عليها بيني وبين "**كارمايكل**".. والرسالة هي «اجتاز الجمل ممر "**خيبر**"». وصمت "**داكن**" لحظة ثم استطرد قائلا:

– إن معنى هذه الرسالة أنه نجح في مهمته وحصل على الأدلة، ولكن أولئك الذين يعنيهم الأمر، ويهمهم ألا ينجح "**كارمايكل**" في إقامة الدليل قد علموا بأمر رحيله، ومن المحقق أنهم يجدّون الآن في أثره ليمنعوه من العودة. سوف

يكمنون له في الطريق، فإذا عجزوا عن الإيقاع به، ترصدوه هنا في "**بغداد**"، وضربوا سياجًا حول جميع السفارات والقنصليات للفتك به إذا حاول الاتصال بهم.. انظر.

وتناول عدداً من الصحف المبعثرة فوق مكتبه وراح يقرأ عناوين بعض أنبائها.

- «اغتيال رجل إنجليزي كان في رحلة بالسيارة من "**إيران**" إلى "**العراق**"»... و«مصرع تاجر كردي في كمين بالجبل»، «أحد جنود الحدود يقتل كرديا يدعى "**عبد الله حسان**" إنه يقال كان يشتغل بالتهريب».. «العثور في طريق "**رواندوز**" على جثة لشخص مجهول، ثبت فيما بعد أنها جثة سائق سيارة أرميني».

ومما يلفت النظر أن أوصاف جميع الضحايا في هذه الحوادث تنطبق على أوصاف "**كارمايكل**". إنهم يريدون تدميره، ولا يتورعون عن تدمير أي شخص يرتابون في أن يكون "**كارمايكل**".

ومتى وصل "**كارمايكل**" إلى "**العراق**"، فإن الخطر عليه سيكون أشد، وسوف يتعين عليه أن يحذر جميع الناس، من موظفي المطار والجمارك إلى خدم القنصليات والفنادق؛ لأن الحلقة ستضيق حوله، وسيحاصر من كل جانب. فقال "**كروسبي**" في دهشة:

- أتعتقد ذلك حقًّا يا سيدي؟

- نعم، والأدهى من ذلك أن بعض أسرارنا قد تسربت، حتى أصبحت أشك في جدوى الإجراءات التي اتخذناها لحماية "**كارمايكل**" عند عودته إلى "**العراق**".. إذ من يدرينا أن هذه الإجراءات لم تتسرب إلى العدو؟ ومن يدرينا أنه لا يوجد في منظمتنا من يعمل لحساب الآخرين؟

- هل ترتاب في شخص بعينه؟ فهز "**داكن**" رأسه سلبا، وظهرت مظاهر الارتياح على وجه "**كروسبي**". قال:

- وهل من رأيك أن نمضي في طريقنا؟

- نعم.

- هل ثمة أنباء عن "**كرفتون لي**"؟

– إنه سيحضر إلى "**بغداد**". وانصرف "**كروسبي**"، وظل "**داكن**" جالسا أمام مكتبه .. وغمغم قائلا بصوت خافت:

– لقاء في "**بغداد**" .. ثم تناول قلما. ورسم دائرة على ورقة أمامه، وكتب في وسط الدائرة كلمة "**بغداد**" .. ثم رسم صورة جمل وطائرة وباخرة وقطار، وجميعها تتجه نحو الدائرة، ثم رسم في ركن الورقة صورة نسيج عنكبوت، وكتب تحته هذا الاسم:

"**هيلين شيل**" .. ثم رسم تحت هذا كله علامة استفهام كبيرة. وبعد لحظة، تناول قبعته، وغادر مكتبه.. وفي شارع "**الرشيد**" مر برجلين نظرا إليه بعد أن ابتعد عنهما وقال أحدهما:

– من هذا الرجل؟ فأجابه الآخر:

– إنه السيد "**داكن**"، وهو يعمل في إحدى شركات البترول.. رجل طيب، ولكنه كسول ولا أعلم إذا كان يسرف في الشراب كما يقول البعض، ولكني واثق بأنه لا، ولن يصلح لشيء.

– هل لديك التقرير الخاص بأملاك "كروجنهوف" يا آنسة "**شيل**"؟

– نعم يا سيد "**مورجنتال**". وقدمت "**هيلين شيل**" التقرير إلى رئيسها.. قال:

– أظن أنه مقتنع.

– أعتقد ذلك يا سيدي "**مورجنتال**".

– هل جاء "**شواترز**"؟

– إنه في قاعة الانتظار.

– دعيهم يبعثون به إليّ. فضغطت "**هيلين شيل**" أحد الأزرار ثم قالت:

– هل أنت في حاجة إليّ يا سيد "**مورجنتال**"؟

– كلا. فانصرفت "**هيلين شيل**" في هدوء.. كانت شقراء، بلاتينية الشعر، لها عينان زرقاوان شاحبتان، تتألقان وراء نظارة سميكة، ووجه دقيق القسمات. ولكنه جامد لا يعبر عن شيء. صفوة القول إنها لم تكن من الطراز الذي يفتن الرجال، وإنها إذا كانت قد احتلت في عملها مركزا مرموقا.. فالفضل في ذلك

يرجع إلى مواهبها. لا لجمالها وجاذبيتها. وكان أبرز مواهبها قوة ذاكرتها. فهي لا تنسى أسمًا أو رقما. ولا تحتاج إلى تسجيل تاريخ أو موعد، وكانت فضلاً عن ذلك سريعة الخاطر، نشيطة، مطيعة.

وكان "**أوتومورجنتال**" - مدير عام بنك "**مورجنتال**" و"**براون**" و"**شييرك**" - يعلم جيداً أن خدمات "**هيلين شيل**" لا تقوم بمال. كان مرتبها ضخما ولكنه كان على استعداد لأن يمنحها أية علاوة تطلبها. ولم تكن "**هيلين شيل**" تعرف كل صغيرة وكبيرة عن أعماله فحسب، وإنما كانت كذلك تعرف كل شيء عن حياته الخاصة. وقد استطلع رأيها في زوجته الثانية فنصحته بطلاقها.. بل وذكرت له بالتحديد المبلغ الذي سوف تقره المحكمة كنفقة لها. وفعلت ذلك دون أن تبدي شفقة أو فضولاً، ولم يدهش "**مورجنتال**"؛ فقد كان يعلم أنها نسيج وحدها، وأنها لا تعرف شيئا عن الأحاسيس التي تعتمل في نفوس الناس، فهي مجرد عقل جبار يعمل لصالح البنك بصفة عامة، وصالحه هو شخصيا بصفة خاصة.

ولذلك دهش السيد "**مورجنتال**" أشد الدهشة حين قالت له "**هيلين**" وهو يهم بمغادرة المكتب، إنها تريد إجازة لمدة ثلاثة أسابيع اعتباراً من يوم الثلاثاء التالي.. ولم يجد بدًّا من القول لها إنه يتعذر عليه إجابتها إلى ما تطلب، ولكنها أجابت في هدوء:

- لا أظن ذلك يا سيد "**مورجنتال**". إن آنسة "**ويجات**" ستحل محلي، وسأترك لها مذكرتي وأصدر إليها التعليمات اللازمة.

- هل تطلبين الإجازة لأنك مريضة يا آنسة "**شيل**"؟ كان يعلم أنه سؤال سخيف.. فإن "**هيلين شيل**" لا يمكن أن تمرض.. إن الجراثيم نفسها تحترمها.. أجابت:

- كلا يا سيد "**مورجنتال**"، ولكني أريد السفر إلى "**لندن**" لزيارة أختي. لم يكن يعرف أن لها أختا، ولم تحدثه "**هيلين**" عن هذه الأخت حتى عندما رافقته إلى "**لندن**" في الخريف الماضي. أجابت وهي تبتسم:

- نعم يا سيد "**مورجنتال**".. وهي متزوجة برجل إنجليزي يعمل في المتحف

البريطاني، وستجرى لها جراحة خطيرة ويجب أن أكون على مقربة منها. وأدرك الرجل من لهجتها أن لا شيء يمكن أن يثنيها عن رغبتها في الرحيل فقال:

– مادام الأمر كذلك، فليس في استطاعتي أن أستبقيك. وكل ما أرجوه هو أن تعودي بسرعة، فالسوق المالية مضطربة إلى أقصى حد؛ بسبب توتر العلاقات بين المعسكرين الشرقي والغربي، حتى ليخشى أن تنشب الحرب في أية لحظة، والواقع أنني أتصور أحياناً أن نشوب الحرب قد يكون هو الحل الوحيد.

– إن أعصاب الناس تكاد تتمزق، وها هم يقولون إن مؤتمر قمة سيعقد قريباً في "**بغداد**".. ألا يعلم الرئيس الأمريكي أنه قد يذهب ضحية اعتداء في "**بغداد**"؟

– ستكون هناك حراسة قوية.. وإجراءات أمن مشددة.

– ومتى كانت إجراءات الأمن حائلاً دون اغتيال الساسة والزعماء؟ إن سفر الرئيس الأمريكي إلى "**بغداد**" هو الجنون بعينه. ثم تنهد واستطرد قائلاً:

– صحيح، إننا نعيش في عالم مجنون. مجنون.

الفصل الثاني

جلست "**فيكتوريا جونز**" على أحد مقاعد حديقة "فيتز جيمس" في "**لندن**"، وراحت تستعرض ذكرياتها وامتلأ قلبها حزنا. أحزنها بصفة خاصة أن تلمس بنفسها مدى ما يمكن أن يتعرض له الإنسان من متاعب إذا حاول إبراز مواهبه في وقت غير مناسب. كان لـ"**فيكتوريا**" – كما لجميع الناس – فضائلها وعيوبها.. فمن فضائلها أنها طيبة القلب، نشيطة في عملها، شغوف بالمغامرة، وقد تكون هذه الخصلة الأخيرة فضيلة. ولكنها كذلك قد تكون عيباً، خاصة إذا كانت الظروف تحتم على الإنسان الحكيم ألا يجازف بشيء محقق.. من أجل شيء مشكوك فيه. على أن أبرز عيوبها كان حبها للكذب. فهي تكذب بكل سهولة. سواء أفادت من الكذب أو لم تفد. فإذا حدث مثلاً أنها تأخرت عن موعد، فإنها لا تقنع بأن تزعم أن ساعتها أصابها خلل، أو أنها انتظرت الحافلة وقتا

طويلاً دون جدوى، وإنما تخترع قصة تشتط فيها مع خيالها الخصب فتزعم مثلاً أن فيلاً هرب من السيرك وعطل حركة المرور. أو أن عصابة مسلحة هاجمت متجراً تحت سمعها وبصرها، وأنها شخصيا قد لعبت دورا بارزا في مساعدة الشرطة على اعتقال أفراد العصابة. كانت فارعة الطول، ممشوقة القوام، لها ساقان بديعتان ووجه تتحرك عضلاته بسهولة مما يساعدها على محاكاة الآخرين وتقليدهم ببراعة عجيبة، وقد كانت هذه (الموهبة) علة متاعبها الحالية. كانت تعمل كاتبة اختزال في متجر "**جرينهولز وسيمونز**" بشارع "**جريهولم**". وقد أرادت في صباح ذلك اليوم أن تسري عن زملائها وزميلاتها في المكتب. فلم تجد أفضل من تقليد زوجة "**جرينهولز**" حين تأتي لزيارة زوجها في مكتبه.

وكانت "**فيكتوريا**" تعلم أن السيد "**جرينهولز**" قد ذهب لمقابلة محاميه، ولن يحضر قبل ساعة على الأقل. فانطلقت تحاكي زوجته، وتقلد حركاتها وصوتها، ولكنتها الأجنبية التي لم تستطع التخلص منها على الرغم من طول إقامتها في "**لندن**". راحت تقول:

– الا تريد أن تبتاع لي تلك الأريكة؟ إن لدى السيدة "**ديفتاكس**" أريكة مثلها. لا تزعم أن ليست لديك نقود.. إنك تجد النقود بسهولة لكي ترافق تلك الشقراء إلى المطاعم والمسارح. هل تظن أنني لا أعلم أنك تعود كل ليلة وعلى وجهك آثار أحمر الشفاه؟ إنني أتركك مع شقرائك ولكني أريد الأريكة. اتفقنا إذن.. ولا تنس معطف الفراء الذي حدثتك عنه؛ إنه ليس من الفراء الجيد على كل حال. ولكنه من حيث الثمن فرصة لا تعوض.

وعندما وصلت "**فيكتوريا**" في محاكاة الزوجة إلى هذا الحد، لاحظت أن زملاءها لا يصغون إليها، وأنهم قد كفوا عن الضحك، وانصرفوا إلى العمل بهمة ونشاط.. فاستولى عليها القلق ونظرت حولها لتجد نفسها وجهًا لوجه أمام السيد "**جرينهولز**". كان الرجل يتأملها في صمت، فافلتت من فمها آهة خافتة، ولم تجد ما تقوله، أما الرجل فإنه مضى إلى مكتبه دون أن ينطق بكلمة. ودق الجرس على الفور، فأسرعت إليه والقلم والورق في يدها لكي تسجل تعليماته وسألته متظاهرة

بالبراءة:

– هل دعوتني يا سيد "**جرينهولز**"؟ فوضع الرجل على مكتبه ثلاث ورقات من فئة الجنيه وقال:

– أظن يا بنيتي الجميلة أنني رأيت ما فيه الكفاية، وأنه ليس لديك مانع من تسلم أجر أسبوع والرحيل عنا دون إبطاء. وهمت "**فيكتوريا**" بأن تخترع قصة تبرر بها سلوكها، ولكن النظرة التي رأتها في عيني "**جرينهولز**" أقنعتها بعدم جدوى أية محاولة في هذا السبيل فعدلت عن محاولتها، وقالت له وهي تبتسم إنها تعتقد أنه على حق..

ودهش "**جرينهولز**". فإنه لم يرَ من قبل موظفًا يتلقى نبأ فصله بمثل هذه البساطة، وحاول أن يخفي دهشته بالبحث في جيوبه عن بقية من نقود.. قال:

– لا أزال مدينا لك بتسعة بنسات. فأجابت بلطف:

– لا بأس يا سيد "**جرينهولز**".. تقبلها هدية مني إليك.

– سوف أبعث بها إليك.

– لا ضرورة لذلك، إن ما يهمني هو الحصول على شهادة. فقطب "**جرينهولز**" حاجبيه وقال مرددًا:

–شهادة؟

– نعم. فكتب "**جرينهولز**" بضعة سطور على ورقة تحمل اسم الشركة وقدمها إليها فقرأت فيها ما يلي:

«أشهد أن الآنسة "**فيكتوريا جونز**" عملت في مكتبي مدة شهرين بصفة كاتبة اختزال، وأنها لا تعرف الاختزال وتجهل الكتابة، وقد فصلت من العمل؛ لأننا لا نستطيع الاحتفاظ بموظفة لا تؤدي أي عمل على الإطلاق. قرأت "**فيكتوريا**" هذه الكلمات وقلبت شفتها وقالت في هدوء:

– يُخيَّل إليّ أن خطابات التوصية تكتب بأسلوب غير هذا.

– ولكنني لم أقصد بهذه السطور أن تكون كتاب توصية.

– كان يجب على الأقل أن تقول إنني لست سكيرة، وإنني أمينة.. وهذه حقائق

كما تعلم، وحبذا لو أضفت كذلك أنني أكتم الأسرار...

– تكتمين الأسرار؟! فقابلت نظرته بجرأة، ولم يهتز لها هدب، وقالت بصوت رقيق:

– نعم.. أكتم الأسرار.. فتذكر "**جرينهولز**" الرسائل المختلفة التي سبق أن أملاها على "**فيكتوريا**"، ورأى من الحكمة أن يرضخ، فتناول الشهادة ومزقها وكتب شهادة أخرى قال فيها:

«أشهد أن الآنسة "**فيكتوريا جونز**" عملت عندي ككاتبة اختزال مدة شهرين، وقد اضطرتنا ظروف العمل إلى ضغط عدد الموظفين والاستغناء عن خدماتها».

وقدم لها الشهادة وهو يقول:

– ما قولك في هذه الصيغة؟ فقرأت "**فيكتوريا**" الشهادة وهزت كتفيها، وقالت:

– ليست رائعة... ولكني سأقنع بها.

*****

استعرضت "**فيكتوريا**" ظروف فصلها واقتنعت بأنها مؤسفة، ولكنها رفضت الاعتراف بأن فصلها كارثة. لقد تخلصت من "**جرينهولز**" وشركته، وهذا أمر له قيمته، ولكن ليس ثمة ما يوحي بأن العمل الجديد الذي سوف تحصل عليه، لن يكون أفضل من العمل مع "**جرينهولز**". وحاولت أن تتناسى الموضوع، وأخرجت من حقيبتها شطيرتين كانت قد أعدتهما لغدائها.. وما إن أتت عليهما حتى رأت شابا يقترب منها ويجلس على الطرف الآخر للمقعد الخشبي الذي كانت تجلس عليه. نظرت إليه من ركن عينيها ووجدته وسيما.

كان أشقر الشعر، أزرق العينين، له فك بارز يدل على قوة الإرادة. ولم تكن "**فيكتوريا**" تضيق بحديث الغرباء الذين تلتقي بهم في الأماكن العامة. كانت تعلم أن في استطاعتها أن توقفهم عند حدهم عند الضرورة. وكانت ابتسامة رقيقة منها كافية لتشجيع الشاب على التحدث إليها. قال:

– طاب يومك يا آنسة.. إنه يوم جميل.. هل تأتين إلى هنا دائما؟

– كل يوم تقريبا.

– هذه أول مرة أجيء فيها إلى هذه الحديقة.. حقًّا إنني سيء الحظ.. هل هذا الذي تتناولينه هو طعام غدائك؟

– نعم.

– إذن دعيني أقل لك إنك لا تتناولين طعاما كافيا.. ولو أنني حذوت حذوك لمت جوعًا.. ما قولك في أن نتناول الغداء في شارع "**توتنهام**"؟ إنني أعرف هناك مطعما صغيرا. فقاطعته:

– لا، شكرا لك.. حسبي ما تناولت.. إنني لا أشعر بالجوع.. وكانت تتوقع أن يقول لها:

– إذن فلنتناول الطعام معا في يوم آخر.. ولكنه لم يفعل، وإنما قال:

– أنا أدعى "**إدوارد**".. وأنت؟

– "**فيكتوريا**".

– كاسم محطة "**فيكتوريا**"؟

– بل كاسم الملكة "**فيكتوريا**".

– واسم الأسرة؟

– "**جونز**".

– إذن اسمك "**فيكتوريا جونز**". وكرر الاسم مرتين ثم قلب شفته وقال:

– الاسمان غير متلائمين. فقالت "**فيكتوريا**" في حماسة:

– وهذا رأيي أيضا.. كنت أفضل أن يكون اسمي "**جيني جونز**"، أو أن يكون اللقب مركبا مثل "**ساكفيل ويست**".. "**فيكتوريا ويست**".. أليس كذلك؟

– جربي لقبا آخر.. "**بدفورد جونز**".. أو "**كريسبروك جونز**".. أو "**سان كلير جونز**"..

وكان يمكن أن تستمر اللعبة أطول من ذلك لولا أن الشاب نظر إلى ساعته وهتف قائلا:

– يجب أن أذهب لمقابلة رئيسي المحبوب.. وأنت؟

– أنا عاطلة.. لقد فصلت من عملي اليوم. فقال الشاب بإخلاص:

–أنا آسف..

– أما أنا فغير آسفة.. أولاً: لأنني سرعان ما سأجد عملا، وثانيا: لأنني ضحكت كثيرًا قبل أن أفصل.

وروت له قصة فصلها، وقلدت السيدة "**جرينهولز**"، فأغرق "**إدوارد**" في الضحك، ولما فرغت من قصتها قال لها إن مما يؤسف له أنها لم تشتغل بالتمثيل. ورحبت "**فيكتوريا**" بهذا الإطراء، ثم ذكرته بموعده مع رئيسه.. وحذرته من التأخير حتى لا يفقد وظيفته ويصبح عاطلاً مثلها، فقال:

– صدقت.. خصوصًا وأنني لن أجد عملاً آخر بسهولة مثلك.. ثم استطرد قائلاً بعد لحظة:

– جميل أن يعرف الإنسان الاختزال ويجيده..

– الواقع أنني لا أجيد الاختزال، ولكن من حسن الحظ أن كاتبات الاختزال، حتى الضعيفات منهن، يجدنِ دائمًا عملاً بأجر لا بأس به.. وأنت ماذا تعمل؟ أراهن أنك اشتركت في الحرب، وأنك عملت في سلاح الطيران.

– هذا صحيح.

– هل كنت قائد إحدى طائرات المطاردة؟

– تماما، وقد وجدوا لي عملا بعد الحرب، ولكنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عما إذا كنت أصلح لهذا العمل أم لا.. إن قيادة الطائرات لا تحتاج إلى ذكاء مفرط.. ولكني الآن تائه بين الملفات والأرقام. وقد اكتشفت في النهاية أنني لا أكاد أصلح لشيء... ولكن دعينا من ذلك الآن... هل تسمحين لي..؟ واحمرَّ وجهه. ولم يتم عبارته، ورأت "**فيكتوريا**" في يده آلة تصوير لم تلاحظها من قبل. استطرد قائلا:

– هل تسمحين لي بالتقاط صور لك؟ خصوصا أنني سأرحل غداً إلى "**بغداد**" وقد.. فهتفت "**فيكتوريا**" بمزيج من الدهشة وخيبة الأمل:

– إلى "**بغداد**"؟!

– نعم.. وأنا الآن آسف لذلك. كنت صباح اليوم أكاد أطير فرحا بهذه الرحلة.. كنت تواقا إلى مغادرة "**إنجلترا**" في أسرع وقت.. ولذلك قبلت ما عرضوه عليَّ.

– وماذا عرضوا عليك؟

– عرضوا عليَّ عملاً تافها لم أجد بدًّا من قبوله.. ورئيسي في هذا العمل الدكتور "**راتبون**"، رجل تحيط باسمه مجموعة من الألقاب الجامعية.. ولا هدف له في الحياة إلا نشر الثقافة.. فقد أنشأ مكتبات في بلاد لم يسمع عنها بعد. وترجم عن "**شكسبير**" و"**ملتون**" إلى اللغات العربية والتركية والفارسية والأرمينية.. صفوة القول إنه كرس حياته لنشر الثقافة الإنجليزية. فهو يؤدي تمامًا نفس المهمة التي يضطلع بها المجلس البريطاني.

– وماذا سيكون عملك معه بالضبط؟

– إنني أؤدي عمل السكرتير الخاص والوصيف، فأجهز جوازات السفر، وأحجز التذاكر، وأتحقق من عدد الحقائب.. وأعتقد أنني سأؤدي في "**بغداد**" نفس العمل.. وظيفة تافهة.. أليس كذلك؟ وكان ذلك هو رأي "**فيكتوريا**" أيضا فصمتت ولم تجب. وهزَّ "**إدوارد**" كتفيه وقال وهو يبتسم:

– لقد نسينا موضوع الصورة.. هل لديك مانع من أن ألتقط لك صورتين.. إحداهما جانبية.. والأخرى أمامية؟ لم يكن لديها مانع على الإطلاق، فاعتدلت في جلستها والتقط "**إدوارد**" الصورتين، وقال:

– مما يؤسف له حقًّا أن أضطر إلى الرحيل بعد أن عرفتك.. كم أود أن أبقى.. ولكن ليس من اللائق أن أتخلى في آخر لحظة.. أليس كذلك؟

– نعم.. ثم إنك قد تجد العمل في "**بغداد**" أفضل مما تتوقع.. فهز رأسه وأجاب:

– لا أظن ذلك.. ثم إنه يخيَّل إليّ أن العملية كلها مثيرة للريبة؟

– أحقًّا تقول؟

– لا تسأليني عما يحملني على هذا الظن.. إنه شعور، وسوف أدهش إذا وجدت أنني كنت مخطئًا..

– ومن الذي يثير ريبتك؟ الدكتور "**راتبون**"؟

– كلا، كلا فهو رجل محترم وعضو في كثير من الجمعيات العلمية.. وعلى كل حال.. فإن الأمور سوف تتضح.. أظن أنني يجب أن أذهب الآن.. مما يؤسف له أنك لا تستطيعين مرافقتي.

– كنت أود ذلك من كل قلبي.

– وماذا ستفعلين الآن؟

– سأبحث عن عمل.. سأذهب الآن إلى مكتب "**سان جيلدريك**" بشارع "**جوار**".. فقد يرشدونني هناك إلى عمل مناسب.

– إلى اللقاء إذن..

– إلى اللقاء يا "**إدوارد**".. أرجو لك حظا سعيدا.

– أظن أنك لن تفكري فيّ..

– تخطئ إذا ظننت ذلك.

– لكم تختلفين عمن عرفت من الفتيات! كنت أود لو أنني بقيت معك وقتا أطول. وفي هذه اللحظة دقت إحدى الساعات نصفا فصاح:

– يجب أن أذهب فعلاً.. وشيعته "**فيكتوريا**" ببصرها حتى توارى.. ثم نهضت وغادرت الحديقة.. وسارت في الطريق إلى شارع "**جوار**". كانت قد اتخذت قرارين: أولهما: أن تقترن بهذا الشاب الذي أحبته من أول نظرة، وثانيهما: أن تحاول السفر إلى "**بغداد**" لتلتقي به هناك. ولكن كيف تصل إلى "**بغداد**"؟ هذه هي المشكلة التي يتعين عليها أن تجد لها حلاً.. ولم تشعر باليأس، فقد كانت مطبوعة على التفاؤل والجرأة والعناد.

الفصل الثالث

استقبلت "**هيلين شيل**" في فندق "**سافوي**" استقبال العملاء المعروفين، وسئلت عن صحة السيد "**مورجنتال**" وقيل لها إن الغرفة التي حجزت لها إذا لم تعجبها فما عليها إلا أن تقول ذلك لكي يعدوا لها غرفة أخرى. كانت "**هيلين شيل**" في

نظر إدارة الفندق تمثل الدولارات الأمريكية التي كانت "**بريطانيا**" في أشد الحاجة إليها.

وصعدت "**هيلين**" إلى غرفتها، واغتسلت واستبدلت ثيابها، واتصلت تليفونيا برقم في "**كنسنجتون**"، ثم غادرت الفندق واستقلت سيارة أجرة انطلقت بها إلى محل "**كارتييه**" تاجر الجواهر المعروف في شارع "**بوند**".

وكان هناك عابر سبيل يتأمل المعروضات في أحد المتاجر منذ وقت طويل، فلما رأى "**هيلين شيل**" تغادر الفندق، ألقى نظرة إلى ساعته ثم أشار إلى سائق سيارة أجرة كان ينتظر على مقربة، فانطلق السائق بسيارته في أثر سيارة "**هيلين شيل**". توقفت السيارتان أمام إشارة المرور عند مدخل ميدان "**الطرف الأغر**". وأشار سائق السيارة الثانية بيده خلسة إلى سيارة خاصة كانت تقف في شارع جانبي بمحاذاة إشارة المرور، فتحركت السيارة الخاصة، وسارت في أثر سيارتي الأجرة. وبعد أن اجتازت سيارة "**هيلين شيل**" ميدان "**الطرف الأغر**"، انحدرت يسارا في شارع "**بول مول**"، بينما انحرفت سيارة الأجرة الثانية نحو اليمين، وأفسحت الطريق للسيارة الخاصة لكي تتعقب "**هيلين شيل**". وكان في السيارة الخاصة شخصان، شاب أشقر أمام عجلة القيادة، وفتاة أنيقة تجلس بجواره. ومرت السيارة الخاصة بسرعة، وتجاوزت سيارة "**هيلين شيل**"، وتوقفت في شارع "**بوند**" لحظة قصيرة ريثما هبطت منها الفتاة. وأومأت الفتاة برأسها لقائد السيارة مودعة، ثم سارت على إفريز الشارع، ودخلت محل "**كارتييه**"، وبعد دقيقة أو دقيقتين، توقفت سيارة "**هيلين شيل**" أمام المحل. ونقدت "**هيلين**" السائق أجره، ودخلت محل الجوهري وقضت بعض الوقت في انتقاء ما تريد، ووقع اختيارها أخيراً على الماسة جميلة وزمردة رائعة، دفعت ثمنهما بتحويل "شيك" على أحد بنوك "**لندن**". وما إن وقع نظر البائع على التوقيع في ذيل التحويل، حتى أبرقت أسارير وجهه وقال:

– أهلاً بك يا آنسة "**شيل**".. هل جاء السيد "**مورجنتال**" إلى "**لندن**"؟

– كلا.

– إنني أسأل عنه؛ لأن لدينا – في الوقت الحاضر – مجموعة منقطعة النظير من أحجار الزمرد، وأنا أعلم مبلغ اهتمامه بهذا النوع من الأحجار الكريمة، هل يهمك أن تريها؟

– بغير شك. ورأت آنسة "**شيل**" أحجار الزمرد وأعجبت بها، ووعدت بأن تحدث السيد "**مورجنتال**" عنها.

أما الفتاة الأخرى التي سبقت "**شيل**" إلى المتجر فإنها طلبت بعض الأقراط، ثم قالت للبائعة إنها ستفكر في الأمر، وانصرفت في أثر "**شيل**"، وتبعتها هي إلى متجر لبيع الأزهار حيث طلبت "**هيلين**" باقة من الورد الأحمر وأخرى من أزهار البنفسج. وأمرت بإرسالهما إلى عنوان ذكرته ،ثم سألت عن الثمن فقالت البائعة:

– اثنا عشر جنيها، وثمانية عشر شلنًا. فدفعت "**هيلين شيل**" هذا المبلغ وانصرفت، وتبعتها الفتاة الأخرى التي قنعت بأن سألت عن ثمن باقة من أزهار النرجس. وانحدرت "**هيلين شيل**" في شارع "**سافيل رو**" ودخلت محل أحد كبار الخياطين، وعلى الرغم من تخصص هذا المحل في صنع ملابس الرجال إلا أنه يصنع "**تاييرات**" السيدات بصفة خاصة للعميلات الممتازات.

ورحب بها صاحب المتجر، واتفق معها على أن تكون التجربة الأولى بعد أسبوع، ومن ثم استقلت سيارة الأجرة إلى فندق "**سافوي**" وتبعتها سيارة أجرة استقلها الشاب الأول الذي تعقبها بعد أن غادرت الفندق.. ولكنه غادر السيارة بعد قليل وقصد إلى الباب الخلفي الخاص بخدم الفندق، وهناك وجد امرأة في مقتبل العمر تسير جيئة وذهابا أمام الباب فسألها:

– هل فتشت الغرفة يا "**هورتنس**"؟

– نعم.. ولم أجد ما يستحق الذكر.

أما "**هيلين شيل**" فإنها تناولت غداءها في مطعم الفندق، ثم صعدت إلى غرفتها فوجدتها مرتبة منسقة. واتجه بصرها على الفور إلى حقيبتيها. وتفقدت محتويات الأولى بسرعة، وكانت قد تركتها مفتوحة. ثم انتقلت إلى الثانية ففتحتها. كان يبدو كأن شيئا فيها لم يمس. مدت يدها وتناولت حافظة أوراق كانت في الحقيبة.

ونثرت عليها مسحوقا مما تستعمله في زينتها، ثم نفخت المسحوق وأمعنت النظر في غطاء الحافظة وابتسمت.

كانت قد أمسكت بالحافظة في الصباح ويدها لا تزال ملوثة بالدهون التي تستخدمها في زينتها، وكان لابد أن يلتصق المسحوق بالبصمات التي تركتها أصابعها الملوثة بالدهون على غطاء الحافظة. ولكنها لم ترَ أثرًا للبصمات. قالت:

– لقد قاموا بعملهم بمهارة حتى بصمات أصابعي قد أزيلت. وغادرت الغرفة والفندق، واستقلت سيارة أجرة ذهبت بها إلى شارع "**إينسلي**". وأمام المنزل رقم 17، توقفت السيارة، وارتقت "**هيلين**" السلم إلى الطابق الأول وقرعت جرسا. وبعد قليل فتح الباب، وأطلت منه سيدة في الحلقة الرابعة من عمرها، نظرت إلى الزائرة بارتياب ثم تهلل وجهها وهتفت قائلة:

– يا إلهي! إن "**إيلزا**" ستسر حين تراك.. كانت واثقة بانك سوف تحضرين.. اتبعيني. وسارت "**هيلين**" في دهليز طويل انتهى بقاعة استقبال فخمة. وفي أحد مقاعد القاعة، كانت تجلس امرأة في مقتبل العمر، ما كادت ترى "**هيلين**" حتى وثبت واقفة وهتفت:

– "**هيلين**"!

– "**إيلزا**"! وتعانقت المرأتان، وقالت "**إيلزا**":

– لقد تم إعداد كل شيء. وسوف أذهب مساء اليوم.. وأرجو.. فقاطعتها "**هيلين**":

– اطمئني يا "**إيلزا**".. أنا واثقة بأن كل شيء سينتهي بخير.

❀❀❀❀❀

تناول الرجل قصير القامة –ذو المعطف الواقي من المطر– سماعة أحد التليفونات العامة وأدار رقمها وسأل:

– شركة "**جراموفون فالهالا**"؟

– نعم.

– هنا "**ساندرز**"، إليك تقرير عن "**هـ. ش**"، إنها وصلت من "**نيويورك**" صباح اليوم، وابتاعت ألماسة وزمردة من محل "**كارتييه**" بمبلغ مائة وعشرين جنيها. ثم ذهبت إلى "**جين كينترت**" بائعة الأزهار وابتاعت باقتين بمبلغ اثني عشر جنيها وثمانية عشر شلنًا، وأمرت بإرسالهما إلى إحدى العيادات الطبية في ميدان "**بورتلاند**"، وقصدت بعد ذلك إلى محل "**بولفورد**" صانع الثياب في "**سافيل رو**".. حيث طلبت أن يصنعوا لها "**تاييرا**". وليس ثمة ما يثير الريبة في المحلات التي ترددت عليها. ولكن هذه المحلات ستوضع تحت الرقابة.. وقد زرنا الغرفة التي تشغلها "**هـ. ش**" في فندق "**سافوي**".

لا شيء غير عادي. وجدت في حافظة أوراق بحقيبتها تقارير خاصة بشركة "**ولفنشتاين**" ليس بينهم ما يهم.. كما وجدت آلة تصوير فيها فيلم يبدو أنه جديد لم يستخدم. ولكننا على كل حال قد استبدلناه بفيلم مماثل.

بعد ذلك ذهبت "**هـ. ش**" لزيارة أختها في المنزل رقم 17 بشارع "**إينسلي**".. وستنتقل أختها هذا المساء إلى عيادة طبية في ميدان "**بورتلاند**" حيث تجرى لها جراحة. سجلات العيادة الطبية تؤكد ذلك.. ليس في سلوك "**هـ. ش**" ما يريب.. إنها لم تشعر بأن هناك من يتعقبها.. وإذا كانت قد شعرت فإنها لم تبد اهتمامًا. من المحتمل أن تقضي هذه الليلة في العيادة.. وقد حجزت مكانا في الطائرة للعودة إلى "**نيويورك**" يوم 23. وكف الرجل قصير القامة عن الكلام لحظة ثم استطرد قائلاً:

– والرأي عندي أننا نضيع وقتنا سدى.. وأن ما يلاحظ على "**هـ. ش**" هو أنها تنفق النقود بغير حساب.

الفصل الرابع

من الإنصاف لـ"**فيكتوريا جونز**" أن نقول: إنها لم تفكر لحظة واحدة في إمكان فشلها. كانت واثقة بأنها ستصل إلى هدفها إن عاجلاً أو آجلاً.. صحيح، إن من

سوء الحظ أن الشاب الذي أحبته من أول نظرة قد رحل إلى بلد يبعد حوالي خمسة آلاف كيلو متر في حين كان يمكن أن يظل في "**لندن**"، أو أن يرحل إلى مكان قريب مثل "بروكسل". إلا أن ذلك لن يغير من الأمر شيئا؛ لأنها صممت على أن تلحق به حيثما يكون مهما يكلفها الأمر.

راحت تفكر في هدوء وهي تسير بخطى بطيئة في شارع "**توتنهام**": « "**بغداد**"؟ ماذا ستفعل في "**بغداد**"؟ لقد تحدث "**إدوارد**" عن علاقات ثقافية. ولكن العلاقات الثقافية مهمة منظمة "**اليونسكو**"، وهذه المنظمة لا تستخدم غير الفتيات الحاصلات على مؤهلات جامعية » إذن يجب أن تبحث عن وسيلة أخرى، ورأت أن تعمل بنظام. فذهبت أولاً إلى إحدى شركات السياحة. وهناك علمت أن ليس ثمة أية صعوبة في الوصول إلى "**بغداد**"، وأنها تستطيع السفر بالطائرة أو عن طريق البحر إلى ميناء "**البصرة**"، أو أن تستقل القطار إلى "**مرسيليا**"، ثم الباخرة إلى "**بيروت**" على أن تستأنف الرحلة بعد ذلك بالسيارة. ولكنها وجدت من الأنسب أن تسافر بالطائرة؛ للتخلص من متاعب الحصول على التأشيرات، ولما كانت "**بغداد**" تقع في منطقة "**الإسترليني**" فلن تكون هناك صعوبات نقدية. ولكن المهم هو أن الرحلة – سواء بالطائرة أو سواها – كانت تتكلف بين 60 و100 جنيه نقداً، وذلك ما أزعج "**فيكتوريا**"؛ لأنها لم تكن تملك في تلك اللحظة سوى ثلاثة جنيهات و12 شلنا.. عدا خمسة جنيهات في صندوق توفير البريد. ومرت في طريقها بإحدى شركات الطيران. وسألت عما إذا كانت الشركة في حاجة إلى مضيفات، وكان الجواب أن الوظائف مشغولة، وأن لدى الشركة مئات من طلبات الاستخدام، وقد تمضي بضعة أشهر قبل أن تطلب الشركة أصحابها لاختبارهم.

وقصدت "**فيكتوريا**" إلى مكتب التخديم الذي تعودت التعامل معه، وهو مكتب "**سان جيلدريك**"، فاستقبلتها آنسة "**سبنسر**" صاحبة المكتب بالابتسامة المرحة التي تدخرها للفتيات اللائي يكثرن من التردد عليها. وهتفت قائلة:

– أهذه أنت يا آنسة "**جونز**"؟ كنت أظن أن الوظيفة التي ألحقتك بها أخيراً قد..

– إنني تركتها..

– أحقًا؟ إذن دعينا منها.

– هل لديك عمل لي؟ فراحت آنسة "**سبنسر**" تبحث في دفاترها.. قالت "**فيكتوريا**":

– أريد عملا في "**بغداد**".

– في "**بغداد**"؟! ونظرت إليها آنسة "**سبنسر**" في دهشة فقالت "**فيكتوريا**":

– نعم. أريد الذهاب إلى "**بغداد**".

– في وظيفة سكرتيرة؟

– إن وجدت. ولكن لا مانع لديّ في أن أذهب كممرضة، أو طاهية، أو مربية أطفال. المهم أن أذهب إلى "**بغداد**". فهزت آنسة "**سبنسر**" رأسها وقالت:

– لا أعتقد أن ثمة أملا.. بالأمس طلبت إليّ إحدى السيدات فتاة ترافق ابنتها إلى "**أستراليا**".

– كلا.. أريد "**بغداد**". بحسبي أن أصل إليها. ورأت في عيني آنسة "**سبنسر**" نظرة تساؤل فاستطردت قائلة:

– إن لي هناك أصدقاء، يستطيعون أن يهيئوا لي عملاً بأجر كبير.. وعندما غادرت المكتب. ابتاعت إحدى الجرائد وتصفحتها وخُيّل إليها أن كل كلمة فيها تتحدث عن "**بغداد**" فالأستاذ "**بونسفوت جونز**" – عالم الآثار المشهور – يقوم ببعض الحفريات في منطقة "**موريك**" الأثرية على بعد ثلاثين كيلومترا من "**بغداد**"، وثمة لوحة إعلانية تقول إنه يمكن الوصول إلى "**بغداد**" عن طريق البحر إلى "**البصرة**"، ثم بالقطار إلى "**بغداد**" و"**الموصل**"، وثمة إعلان سينمائي عن فيلم "**لص بغداد**"، ونقد أدبي لكتاب ظهر حديثًا بعنوان « "**هارون الرشيد**" خليفة "**بغداد**" ». وخُيِّل إلى "**فيكتوريا**" أن الدنيا كلها تتحدث عن "**بغداد**" التي لم تثر اهتمامها إلا منذ الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم. وأحست بأنها لن تستطيع الوصول إلى "**بغداد**" بسهولة ولكنها مع ذلك لم تفقد الأمل.

وفي المساء، قبل أن تذهب إلى فراشها، سجلت الأبواب التي يجب أن تطرقها

للحصول على عمل في "**بغداد**" على النحو التالي: نشر إعلان في الصحف عن طلب وظيفة في "**بغداد**"، وزارة الخارجية، سفارة "**العراق**"، الشركات التي تستورد التمر العراقي، شركات الملاحة. وكانت تتوقع الفشل، فسجلت التساؤل التالي: «كيف يمكن الحصول على مائة جنيه؟»

❁❁❁❁❁

استيقظت "**فيكتوريا جونز**" في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، وارتدت ثيابها على عجل، وعندما همت بتصفيف شعرها. دق جرس التليفون، فتناولت السماعة. كان المتحدث آنسة "**سبنسر**". وكان صوتها يدل على الانفعال. هتفت قائلة:

– يا إلهي! كم أنا سعيدة بأنني وجدتك. لقد حدثت مصادفة عجيبة حقًّا.

– مصادفة؟!

– نعم. فإن سيدة تدعى سيدة "**هاملتون كليب**" تعتزم السفر إلى "**بغداد**" بعد ثلاثة أيام، وقد أصيبت بكسر في ذراعها، وهي في حاجة إلى فتاة ترافقها في رحلتها. ولكنني لا أعلم ما إذا كانت قد اتصلت بمكاتب تخديم أخرى.

– سأذهب إليها على الفور. أين تقيم؟

– في فندق "**سافوي**".

– تقولين إن اسمها السيدة "**تريب**"؟

– كلا. سيدة "**هاملتون كليب**". إن زوجها هو الذي اتصل بي.

– أنت جوهرة.. سأذهب إليها في الحال.. وارتدت خير ما عندها من ثياب، وأعادت تصفيف شعرها لكي تبدو جادة رصينة.. وقبل أن تنصرف أعادت قراءة الشهادة التي كتبها لها السيد "**جرينهولز**" وهزت كتفيها.. واستقلت "**فيكتوريا جونز**" الحافلة إلى "**جرين بارك**" وحانت منها التفاتة إلى جريدة في يد راكبة تجلس بجوارها، ولمحت نبأ مفاده أن السيدة "**كاينثيا برادبوري**" أبحرت في اليوم السابق إلى "غرب إفريقيا".. فسجلت النبأ في ذهنها، وغادرت الحافلة، وقصدت

إلى فندق "**ريتز**". وهناك. في صالة الفندق، وعلى ورقة تحمل اسمه، كتبت شهادة أشادت فيها بأخلاق "**فيكتوريا جونز**" وعملها، وقعتها باسم السيدة "**كاينثيا**"..

وبعد بضع دقائق، انطلقت إلى فندق "**بالدرتون**" وهو مكان يختلف إليه كبار رجال الكنيسة والأرامل المسنات القادمات من الأقاليم، وهناك وعلى ورقة تحمل اسم الفندق، وبخط رصين يختلف تماما عن خط السيدة "**كاينثيا**"، كتبت شهادة أخرى أطرت فيها سلوك "**فيكتوريا جونز**" ونسبتها إلى أسقف "**لانجو**"..

وتسلحت "**فيكتوريا**" بهاتين الشهادتين، واستقلت حافلة أخرى أوصلتها على مقربة من فندق "**سافوي**".. ودخلت الفندق بقدم ثابتة.. وطلبت إلى موظف الاستقبال أن يوصلها تليفونيًا بالسيدة "**هاملتون كليب**". وهمَّ الموظف بإجابتها إلى ما طلبت، ثم عاد ووضع السماعة وهو يقول:

– هو ذا سيد "**هاملتون كليب**" يغادر المصعد..

*****

كان "**هاملتون كليب**" رجلا طويل القامة، أمريكي المظهر، تنم قسمات وجهه عن الدعة وسعة الصدر، فاقتربت منه وذكرت له اسمها، وقالت إنها قادمة من لدى مكتب تخديم "**سان جيلدريك**". فقال:

– حسنا يا آنسة "**جونز**".. إن السيدة "**كليب**" في غرفتها وسأرافقك الآن إليها. ولكني أعتقد أن فتاة أخرى قد جاءت لمقابلتها لنفس الغرض.. اصفر وجه "**فيكتوريا**". وأحست بالدنيا تدور من حولها.. ترى هل ستفشل الآن بعد إذ أصبحت من هدفها قاب قوسين أو أدنى؟؟ ورافقها "**هاملتون كليب**" إلى الطابق الثالث. وسار معها في دهليز طويل.. وفجأة أحست أنها في حلم لا في يقظة.. فقد وقع بصرها على فتاة مقبلة نحوهما خُيِّل إليها للحظة قصيرة، أنها تشبهها كل الشبه.. ربما؛ لأن الفتاة كانت ترتدي "تاييراً" أنيقا إلى أقصى حد، طالما تمنت هي أن يكون لديها مثيله. ومرت بهما الفتاة.. ويبدو أن السيد "**هاملتون كليب**"

قد عرفها حالما مرت به؛ لأنه ما لبث أن أدار وجهه في أثرها وغمغم قائلا:

– "**هيلين شيل**" ! يا إلهي! من كان يظن أنني سأقابلها هنا.. ثم تحول إلى "**فيكتوريا**" وقال:

– معذرة يا آنسة.. فقد أدهشني أن أجد هنا في "**لندن**" هذه الفتاة التي قابلتها في "**نيويورك**" منذ أقل من أسبوع.. إنها سكرتيرة أحد كبار الماليين الدوليين.

وتوقف "**هاملتون كليب**" أمام باب وطرقه.. ثم فتحه ودخل قبل أن يلقى جوابًا.. ووقف جانبا ليسمح لـ"**فيكتوريا**" بالدخول.. وكانت زوجته تجلس في مقعد كبير بالقرب من النافذة فنهضت لاستقبالهما. كانت قصيرة القامة، ضيقة العينين، وقد عصبت ذراعها وشدته إلى عنقها.. وقدم السيد "**هاملتون**" الفتاة إلى زوجته فقالت هذه الأخيرة:

– أليس من سوء الحظ أن يحدث لي ما حدث يا آنسة"**جونز**"؟؟ كنت في طريقي إلى "**العراق**" لزيارة ابنتي المتزوجة هناك والتي لم أرها منذ عامين، ثم خطر لي أن أشهد معالم "**لندن**" قبل الرحيل إلى "**بغداد**". وبينما كنت أشاهد دير "**وستمنستر**"، زلت قدمي فكسرت ذراعي.. إنني لا أتألم كثيرا. ولكنني أشعر بعجزي عن السفر، خصوصا وأن أعمال زوجي ستضطره إلى البقاء في "**لندن**" ثلاثة أسابيع قبل أن يلحق بي. وقد خطر لي أن أستخدم ممرضة ترافقني في رعاية ابنتي وزوجها.. ولكني عدت ففكرت في أنني إذا لجأت إلى مكاتب التخديم فلن أجد فتاة ترضى بمرافقتي لقاء أجر الرحلة.

فقالت "**فيكتوريا**" في تواضع: إنها لا تستطيع أن تعد نفسها ممرضة بالمعنى المفهوم. على الرغم من أنها قامت بتمريض السيدة "**كاينثيا برادبوري**" طوال عام بأسره. وقدمت الشهادة التي تحمل توقيع السيدة واستطردت قائلة:

– أما أعمال السكرتارية فإنني أجيدها كل الإجادة وقد مارستها مع عمي أسقف "**لانجو**".

قالت ذلك في تواضع، وقدمت شهادة الأسقف. فقالت السيدة "**كليب**" وهي تدفع بالشهادتين إلى زوجها:

– لا شك في أن العناية الإلهية قد أرسلتك إليَّ يا بنيتي العزيزة..

فابتسمت "**فيكتوريا**" في حياء واستطردت السيدة "**كليب**" قائلة:

– هل تعرفين أحدا في "**بغداد**" يا آنسة "**جونز**"؟ أو هل توجد في انتظارك وظيفة هناك؟

وبوغتت "**فيكتوريا**" بهذا السؤال.. فلم تكن قد فكرت في شيء آخر غير الشهادات... فلم يخطر لها ببال أن تسأل عن سبب رغبتها في السفر إلى "**بغداد**". وجاء جوابها ذكيًّا، وجريئًا، وقائمًا على نبأ قرأته في إحدى الصحف في اليوم السابق.. قالت:

– الواقع، إنني أريد اللحاق بعمي الدكتور "**بونسفوت جونز**"..

– عالم الآثار؟

– نعم.. وأدركت بعد فوات الوقت أنها نسبت نفسها إلى كثير من الأعمام المشهورين، ولكن لم يكن في وسعها أن تتراجع.. قالت:

– إنني شديدة الاهتمام بعمله.. ولم أستطع الانضمام إلى بعثته؛ بسبب قلة الاعتمادات المالية. فقال السيد "**هاملتون**":

– مما لا شك فيه أن أرض الجزيرة غنية بالآثار التي تثير اهتمام العلماء وفضولهم.

فالتفتت "**فيكتوريا**" إلى الزوجة وقالت:

– أخشى أن يكون عمي الأسقف قد سافر إلى "**اسكتلندا**"، ولكني يمكنني الاتصال بسكرتيرته في رقم 97693 للحصول على كافة الاستعلامات بشأني.

– أظن أنني.. فقاطعها زوجها قائلا:

– إن الوقت ضيق.. وستقلع الطائرة بعد غد.. هل لديك جواز سفر يا آنسة؟

– نعم. وقد أحضرته معي..

– هذا حسن.. هذا حسن.. إنني أحب الأشخاص العمليين.. سوف تحتاجين إلى بعض التأشيرات. وأعتقد أن صديقي "**برجسون**" الموظف بشركة "**أمريكان إكسبريس**" يستطيع إنجاز هذه المهمة. ولكن يجب أن تمكثي معنا هنا فقد يحتاج "**برجسون**" إلى توقيعك. فوعدت "**فيكتوريا**" بالعودة في الساعة الرابعة.

وانطلقت بسرعة إلى شقتها، وجلست أمام آلة التليفون واستعدت لمحاكاة صوت سكرتيرة الأسقف فيما لو خطر للسيدة "**كليب**" أن تستفسر عن الفتاة التي استخدمتها.. ولكن السيدة "**كليب**" لم تتصل. وفي مساء ذلك اليوم، كانت أوراق "**فيكتوريا جونز**" قد استكملت تمامًا.. وقضت الفتاة ليلتها الأخيرة في "**لندن**" في فندق "**سافوي**"؛ لكي تعاون السيدة "**كليب**" في حزم أمتعتها للرحيل في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي..

الفصل الخامس

كان التيار قويا، فلم يجد "**عبد الله سليمان**" - الشيخ الذي قضى الأعوام العشرة الأخيرة في نقل المسافرين بقاربه عبر "**شط العرب**" إلى "**البصرة**" - ما يصنعه سوى أن يترك القارب للتيار، ويسبل أهدابه، ويترنم بإحدى الأغنيات بصوته الهادئ الحزين. وكان القارب خاليًا إلا من راكب واحد يرتدي جلبابًا طويلاً، و"سترة" صفراء ممزقة، ويضع حول عنقه شملة "**كوفية**" حمراء.. وقد أخذ هذا الراكب ينظر إلى الماء دون أن يراه. ويهمس بنفس الأغنية التي يترنم بها الشيخ..كان وجهه يشبه وجوه كثيرين ممن يعيشون بين "**دجلة**" و"**الفرات**". بحيث يستحيل على من ينظر إليه أن يتصور أنه إنجليزي لحما ودما، وأنه يطوي صدره على سر خطير قد يكلفه حياته..

كان ينظر إلى الماء ولا يراه، لأنه كان مستغرقا في التفكير. راح يستعرض الماضي القريب، ويفكر في الكمائن التي نصبت له في الجبل، والأيام الأربعة التي قضاها هائما على وجهه في الصحراء، والليالي التي قضاها في الخيام. كان ينظر إلى الماء ولا يراه، لأنه كان مستغرقا في التفكير في أصدقائه القدامى، رجال قبيلة "**العنايرة**".. والأعداء الذين يترصدونه ليحولوا بينه وبين أداء مهمته.

لقد خُيّل إليه، أن كل إنسان صادفه في رحلته يعلم كل شيء عنه، ويعرف أنه "**هنري كارمايكل**" العميل البريطاني الذي يتكلم العربية والكردية والفارسية

والأرمنية والهندية والتركية، ويجيد لهجات سكان الجبال، وله أصدقاء في جميع القبائل..

✽✽✽✽✽

كان رؤساؤه قد تركوا له حرية العمل، فاختار من الطرق ما يكفل له أكبر قدر من الطمأنينة والسلامة.. وحرص على كتمان خطته للوصول إلى "**بغداد**" خصوصا، بعد أن تخلفت الطائرة التي كان مقررا أن توافيه في مكان متفق عليه، مما أقنعه بأن أدق الأسرار يمكن أن تتسرب بطريقة غامضة تثير الريبة في رؤسائه أنفسهم.

قال له البحار الشيخ:

– لقد اقتربنا يا بني.. كان الله معك..

– عد على الفور يا أبتاه.. فلست أريد أن يصيبك مكروه.

– «لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا».. إن حياتي بين يدي الله.

وانحرف البحار الشيخ بقاربه.. وسار به متمهلاً حتى بلغ ضفة النهر.. وهناك قال:

– لقد وصلنا. وفقك الله وأطال بقاءك.

✽✽✽✽✽

ووثب "**كارمايكل**" إلى الضفة.. وسرعان ما وجد نفسه في جو مألوف. وسط صبية يبيعون مختلف أنواع الفاكهة والحلوى، ورجال يروحون ويغدون في غير عجلة. وفي الجانب الآخر من الشارع.. حيث الحوانيت والبنوك، كان عدد كبير من الأوربيين، أكثرهم من الإنجليز، يشقون طريقهم وسط عدد أكبر من الوطنيين.

وسار "**كارمايكل**" ببطء دون أن ينظر يمنة أو يسرة، كمن لا يعنيه شيء مما يقع تحت بصره. فعبر الجسر، ومشى في السوق، حيث الزحام والضوضاء.. وحيث يتدافع الناس ليشقوا لأنفسهم طريقا. وعلى الرغم من ثقته بأن أحدا في هذا الزحام لا يشعر بوجوده أو يقيم له وزنا. فقد أحس عن يقين بأن هناك خطرا يحوم حوله. لم يعرف لهذا الإحساس مصدرا أو سببا، كان مطمئنا إلى أنه ليس هناك من

يتعقبه أو يراقبه. ومع ذلك فقد أحس بالخطر. أحس به بغريزته التي قلما تخطئ..

انحدر في طريق جانبي ضيق.. ثم انحرف يسارا، ووجد نفسه في فناء واسع تحف به حوانيت تبيع مختلف البضائع. ووقف أمام حانوت للفراء والأدوات الجلدية.. وكان صاحب الحانوت في تلك اللحظة يقدم القهوة لأحد زبائنه، وهو شيخ مهيب الطلعة، له لحية بيضاء، وعلى رأسه طربوش تحيط به عمامة خضراء.. وأشار "**كارمايكل**" إلى أحد الفراءات وسأل التاجر:

– بكم هذا؟

– بسبعة دنانير..

– هذا ثمن باهظ. وقال الشيخ ذو اللحية البيضاء محدثا التاجر:

– هل ستبعث إليَّ بالسجاجيد اليوم؟

– بغير شك.. هل سترحل غدا؟

– نعم. سأذهب إلى "**كربلاء**". فقال "**كارمايكل**":

– "**كربلاء**"؟! إنها مسقط رأسي، ولكني لم أرها، ولم أزر قبر "**الحسين**" منذ خمسة عشر عاما. فقال التاجر:

– إذا كنت تريد فراء رخيص الثمن فعندي ضالتك.

– أريد فراء أبيض.. وأشار إلى باب في آخر الحانوت يؤدي إلى المخزن.

كان هذا الحديث عاديا ومألوفا في السوق كل يوم، ولكنه تضمن كلمتي السر المتفق عليهما "**كربلاء**" و"**الفراء الأبيض**".. ورافق التاجر عميله إلى المخزن.. وهناك نظر "**كارمايكل**" إلى وجه التاجر لأول مرة. واكتشف أنه ليس الوجه الذي كان يتوقع أن يراه.. كان يشبهه إلى درجة مذهلة.. ولكنه ليس هو. سأل في دهشة:

– إذن أين "**صلاح حسن**"؟

– لقد توفي أخي المسكين منذ ثلاثة أشهر.. وأنا الذي حللت محله.. كان الشبه بين الأخوين واضحا، وإذا كان أحدهما قد عمل في خدمة المخابرات البريطانية فليس ثمة ما يمنع الآخر أن يحذو حذوه.. على أن هذا الاحتمال لم يمنع "**كارمايكل**" من الأخذ بأسباب الحذر.. وكان المخزن ضيقا والإضاءة به ضعيفة،

والبضائع مبعثرة فيه بغير نظام. ورأى "**كارمايكل**" في وسط المخزن مائدة صغيرة عليها فراء أبيض، فرفع الفراء ووجد تحته بغيته، ثوبا أوربيًا جيد الصنع، في أحد جيوبه نقود وأوراق.. فتنفس الصعداء.. لقد دخل المتجر كعربي مجهول، ولكنه سيغادره بعد دقائق بصفته الجديدة كالسيد "**ولتر ويليمز**" ممثل شركة "كروس وشركاه، وكلاء شركات الملاحة، وأصحاب مكتب للاستيراد والتصدير. والسيد "**ولتر ويليمز**" موجود فعلا، وهو من رجال الأعمال المعروفين في المدينة..

ومرة أخرى، تنهد "**كارمايكل**" بارتياح وراح يفحص الثوب الذي أعد له، ولو فكر أعداؤه في استخدام المسدس للتخلص منه، لأصبح في عداد الأموات في تلك اللحظة بالذات.. ولكن من حسن حظه أنهم آثروا استخدام الخنجر، ربما لأنه لا يحدث صوتا كالمسدس.. كان خنجرا ذا نصل طويل مقوس. في يد شخص توارى خلف الثياب المكدسة في المخزن. ولم يرَ "**كارمايكل**" الخنجر أو الشخص.. ولكنه رأى بريق النصل منعكسا على آنية نحاسية لامعة موضوعة في أحد الأركان، ولو تريث لحظة لغاص النصل بين كتفيه، ولكنه استدار بسرعة البرق وأمسك بيد الرجل وألقاه أرضا، فانفلت الخنجر من قبضة يده وطار بعيدا.

ولم يحفل "**كارمايكل**" بخصمه، وإنما أطلق ساقيه للريح وغادر المتجر مسرعًا، ولم يتئد في مشيته إلا عندما وجد نفسه بين المارة في السوق. توقف مرة أو مرتين ليفحص قطعة من القماش، أو بعض أدوات القهوة... ولكن ذهنه كان يعمل بسرعة.. ولقد وجد نفسه مرة أخرى، وحيداً وسط أعداء لا حصر لهم، يستطيعون أن ينالوه حتى في اللحظة التي يتوهم فيها أنه أصبح في مأمن من الأخطار.. ترى هل استطاع العملاء الأجانب التسلل إلى صفوف المخابرات البريطانية لكي تنكشف كل تحركاته وسكناته على هذا النحو المذهل؟ ولكن ذلك لا يهم الآن.. المهم هو أنه الآن وحيد، صفر اليدين، وليس لديه أية وسيلة للتنكر وإخفاء شخصيته.. ولم ينظر وراءه. إذ ما الفائدة؟ إن الذين يتعقبونه ليسوا سذجا.. وسار في غير هدى.. إلى أن وجد نفسه أخيرا خارج منطقة السوق، فعبر الجسر، وسار في الشارع المؤدي إلى القنصلية البريطانية. .وكان من اليسير عليه أن

يتسلل إلى مبنى القنصلية ولكنه تردد.. إن الفئران لا تجد صعوبة في دخول المصيدة ولكنها لا تعرف المصير الذي ينتظرها بعد الدخول.. كانت مخاطرة لا مفر منها.. فليس أمامه سبيل آخر.

الفصل السادس

قبع "**ريتشارد بيكر**" في قاعة الانتظار في القنصلية ريثما يفرغ القنصل لمقابلته.. كانت الباخرة التي استقلها إلى "**البصرة**" قد وصلت في الموعد المقرر خلافا لما توقع. وكانت النتيجة أنه وجد أمامه فترة فراغ تربو على ثمان وأربعين ساعة قبل أن يتمكن من مواصلة رحلته عن طريق "**بغداد**" إلى "**التل الأسود**".. مقر الحفريات التي يعمل فيها مع الدكتور "**بونسفوت جونز**".. ولكنه كان يعرف كيف يستطيع قضاء هذه الثماني والأربعين ساعة..

كانت توجد في الجانب الآخر، بالقرب من "**الكويت**" منطقة يقال إنها كانت مركزا للحضارة القديمة. فقرر أن يقوم برحلة سريعة إليها، للبحث والدراسة. واستفسر في المطار عن أسرع السبل للوصول إلى "**الكويت**"، فقيل له إن طائرة ستقلع إلى "**الكويت**" في الساعة العاشرة صباحا، وإنه يستطيع العودة بها في اليوم التالي..ولكن لابد لذلك من الحصول على تأشيرة دخول من القنصلية البريطانية.

وتذكر "**بيكر**" أنه سبق أن اجتمع في "**إيران**" بالسيد "**كلايتون**" الذي يشغل الآن منصب القنصل العام في "**البصرة**"، فقرر أن يقابله. وأرسل إليه بطاقته، وجاءه الخادم لينبئه بأن السيد "**كلايتون**" مشغول.. ولكنه سيستقبله بعد بضع دقائق. وقاده إلى قاعة للانتظار تطل على حديقة مترامية الأطراف.

وكان في القاعة عدة أشخاص ينتظرون مقابلة القنصل العام، ألقى عليهم "**بيكر**" نظرة سريعة.. ثم راح يتأملهم واحداً بعد الآخر.

كان بينهم رجل عربي يرتدي جلبابا، وسترة صفراء، وشملة حمراء وعقالا.. وفي يده مسبحة يحرك حباتها بأصابعه. ورجل إنجليزي بدين، أبيض شعر الرأس

والشاربين يسجل أرقاما على ورقة في يده. ويبدو أنه يعمل مندوبا تجاريا. ورجل أسمر البشرة. تبدو عليه مظاهر التعب. ولعله كان سعيدا إذ وجد أخيرا مقعدا وثيرا يجلس عليه. ثم رجل إيراني، يرتدي ثوبًا ناصع البياض.. وقد ظل العربي طوال الوقت يحرك حبات المسبحة حبة بعد اخرى. وفجأة أحس "**بيكر**" بأن صوت ارتطام كل حبة بالتي سبقتها يذكره بشيء: شرطة. نقطة.. شرطة.. نقطة.

إنها شفرة "**مورس**" التي تستخدم في إرسال البرقيات.. وقد تعلمها واستخدمها حين كان يعمل في الجيش إبان الحرب.. وأرهف أذنيه.. وراح يترجم الصوت إلى حروف. ويؤلف من الحروف كلمات. فحصل على كلمتي: "**البومة- أيتون**". "البومة". إنه الاسم الذي كان يطلق عليه في كلية "**أيتون**"؛ لأنه كان يضع على عينيه نظارة ضخمة ذات إطار كبير. ونظر جيدا إلى العربي.. وجد أنه لا يختلف عن عشرات العرب الذين يقابلهم الإنسان في السوق. وكانت عيناه تنظران بعيدا. وليس في نظراته ما يوحي بأنه يعرفه.. واستمرت حبات المسبحة في نقراتها المنتظمة.. وترجم "**بيكر**" النقرات كما يلي: «أنا الفقير.. إنني أعتمد عليك».

وحار "**بيكر**" في الأمر.. الفقير؟ أي فقير؟ آه! بالتأكيد.. الفقير "**كارمايكل**". لقد أطلق عليه زملاؤه في الكلية هذا الاسم؛ لأنه ولد وعاش في منطقة نائية لعلها "**تركستان**" أو "**أفغانستان**"، أو "**الهند**" حيث توجد طائفة الفقراء. وأخرج "**بيكر**" غليونه من جيبه، ونظر فيه، ثم راح يدق عليه بإصبعه؛ كأنما ليزيل منه بقايا التبغ..

وكان معنى هذه الدقات: «تسلمت رسالتك».

وكانت الأحداث التي وقعت بعد ذلك سريعة مذهلة.. إلى حد أن "**ريتشارد بيكر**" لم يستطع فيما بعد أن يذكر تفصيلاتها تماما. فقد نهض العربي من مكانه.. ومشى نحو الباب.. ولما أصبح أمام "**بيكر**" زلت قدمه، فاستند إلى هذا الأخير ليمنع نفسه من السقوط. ونطق بكلمة اعتذار وواصل سيره..

وفي ذات اللحظة، ترك الإنجليزي البدين أوراقه، ودس يده في أحد جيوبه الداخلية بحركة سريعة لا تتفق مع بدانته، وأخرج مسدسا.. وبأسرع من لمح

البصر، انقض عليه "**بيكر**"، وأهوى على يده بقبضته، فسقط المسدس على الأرض وانطلقت منه رصاصة سكنت الجدار.. أما العربي فإنه اختفى تماما. انطلق يعدو في الدهليز "**الموصل**" إلى مكتب القنصل. ثم انحرف يسارا فوجد نفسه في الحديقة.. فوثب فوق السور، وتوارى وسط الزحام..

وأقبل خادم القنصل مهرولا. فوجد "**بيكر**" ممسكا بساعد الإنجليزي البدين، بينما لم يحرك أحد من الآخرين ساكنا.. وصاح "**بيكر**" بالرجل الإنجليزي:

– ما معنى هذا؟ لماذا أطلقت الرصاص؟ فأجاب الرجل محتجا:

– أنا لم أطلق الرصاص. لقد سقط المسدس فانطلقت الرصاصة..

– إنك أردت إطلاق الرصاص على ذلك العربي الذي فر في التو واللحظة.

– إنما أردت إرهابه.. لقد عرفته حين نهض واقفا. عرفت فيه شخصا باعني قطعة أثرية زائفة.. كنت أقصد مداعبته وإرهابه فحسب..

وكان "**بيكر**" يكره الدعابة، فتظاهر بالاقتناع بأعذار الرجل على الرغم من تفاهتها؛ أولاً – لأنه لا يملك دليلا ضده. ثانيا – لأن "**كارمايكل**" ربما لا يوافق على إثارة ضجة حول الحادث.. وراح الخادم ينحي باللائمة على الرجل الذي أطلق الرصاص في القنصلية وقال إن القنصل لن يغفر مثل هذا السلوك، فأجاب الإنجليزي:

– قلت إن الرصاصة انطلقت قضاء وقدرا، وأنا آسف لذلك. وعلى كل حال فإنني سأنصرف الآن وسوف أحاول مقابلة القنصل في فرصة أخرى.. ثم قدم بطاقته إلى "**ريتشارد بيكر**" واستطرد قائلاً:

– إليك اسمي. وأنا أقيم في فندق المطار.. ويمكن الاتصال بي هناك إذا تطورت الأمور.. ولكنني أؤكد لك مرة أخرى أن الأمر كان مجرد دعابة. وانصرف الرجل.. وبعد لحظة دعي "**بيكر**" لمقابلة القنصل، وكان رجلاً نحيفا في الحلقة الخامسة من عمره فابتدره "**بيكر**" بقوله:

– لا أعلم إذا كنت تذكرني أم لا.. إننا تقابلنا في "**طهران**" منذ عامين..

– بل أذكرك جيدا.. كنت وقتئذ مع الدكتور "**بونسفوت جونز**"، أليس

كذلك؟ هل جئت معه أيضاً هذه المرة؟

– نعم.. ولكني أجد لدي فسحة من الوقت قبل أن ألحق به، وأود قضاء هذا الوقت في القيام بزيارة سريعة لـ"**الكويت**". فهل هناك مانع؟

– لا مانع على الإطلاق.. ستقلع الطائرة صباح غد فتصل إلى "**الكويت**" بعد ساعة ونصف الساعة. سأبرق الآن إلى "**أرشي جونت**" مندوبنا المقيم هناك؛ لكي يستقبلك ويعد لك مكانا للإقامة.. أما هذه الليلة فإنك ستقضيها في ضيافتي..

– لا أريد إزعاجك.. إن في استطاعتي أن أقضي الليلة في الفندق..

– إن فندق المطار مليء بالنزلاء. وسيكون من بواعث سرورنا أنا وزوجتي أن نستضيفك الليلة. إن لدينا ضيفين آخرين السيد "**كروسبي**" الموظف بشركة البترول، وشاب آخر يعمل مع الدكتور "**راتبون**" ويقضي نهاره مع رجال الجمارك للتخليص على أمتعة الدكتور وكتبه.. وكان "**كلايتون**" يقيم في الطابق الأول فوق مكاتب القنصلية وقد عرفت زوجته "**ريتشارد بيكر**" حالما رأته. فرحبت به قائلة:

– لقد طفنا معا أسواق "**طهران**"، وأذكر أنك ابتعت مجموعة من السجاجيد الثمينة.. فأجاب "**بيكر**":

– إنها خير صفقة عقدتها. والفضل فيها يرجع إليك.. فقال "**كلايتون**":

– إن "**بيكر**" يعتزم السفر غدا إلى "**الكويت**"، وقد دعوته لقضاء الليلة معنا. فقالت زوجته:

– بغير شك.. إنني لا أستطيع أن أقدم إليك أفخم غرف عندنا؛ لأن الكابتن "**كروسبي**" يشغلها ولكني سأقدم إليك غرفة أخرى مريحة. واستأذن القنصل في الانصراف للعودة إلى مكتبه. وقال:

– يبدو أن حادثا وقع في قاعة الانتظار، فقد قيل لي إن شخصا شهر مسدسه وأطلق رصاصة.. فقاطعه "**بيكر**" قائلا:

– الواقع أنني شهدت هذا الحادث. إن بطله رجل إنجليزي أراد مداعبة أحد العرب ولكني جردته من سلاحه.. إليك بطاقته. وقدم للقنصل بطاقة الإنجليزي

البدين فقرأ فيها:

- "**روبرت هول**"، مصانع "**أشيل - أنفلد**".. إنني لا أعرف لماذا أراد مقابلتي... هل كان ثملا؟

- لا أعلم.. لقد زعم أنه أراد مداعبة العربي، وأن الرصاصة انطلقت قضاء وقدرا.. فقطب "**كلايتون**" حاجبيه وقال:

- إن رجال الأعمال لا يزورون القنصلية عادة وفي حوزتهم مسدسات محشوة.

فقال "**بيكر**":

- أظن أنه ما كان ينبغي لي أن أدعه يذهب..

- ليس من السهل في مثل هذه الظروف أن يعرف الإنسان ما ينبغي عليه عمله.. هل أصيب العربي؟

- كلا.

- إذن فقد أحسنت بإخلاء سبيل الرجل.

- ولكنني أعتقد أن وراء الأكمة ما وراءها.

- وأنا أيضا أعتقد ذلك. وعاد القنصل إلى مكتبه.. بينما رافقت زوجته "**بيكر**" إلى قاعة الاستقبال، وقدمت له قدحا من الشراب وسألته عن سبب سفره إلى "**الكويت**" فأجابها، وسألته لماذا لم يتزوج بعد. فقال: إنه يكرس كل وقته للعمل، ولا يفكر في أي شيء آخر، فسألته:

- ألا توجد فتيات يعملن معكم في الحفريات؟

- بل توجد فتاة أو فتاتان.. عدا زوجة الدكتور "**بونسفوت جونز**" بطبيعة الحال.

وفي هذه اللحظة دخل عليهما رجل قصير القامة، عريض المنكبين، فقدمته السيدة "**كلايتون**" إلى "**ريتشارد بيكر**" باسم الكابتن "**كروسبي**". وقالت لـ"**كروسبي**" عن "**ريتشارد بيكر**" إنه عالم آثار ينتظره مستقبل عظيم، وإنه اكتشف مجموعة قيمة من الآثار يرجع تاريخها إلى آلاف السنين.

فقال الكابتن:

– إنه لم يفهم قط كيف يستطيع العلماء تحديد أعمار الآثار التي يكتشفونها، وإنه يعتقد أنهم يكذبون على الناس. فنظر إليه "**بيكر**" في إشفاق ولزم الصمت. فقال "**كروسبي**" ضاحكا:

إنه إنما أراد مداعبته، وإنه يود أن يعرف كيف يحدد العلماء أعمار الآثار.. وأجاب "**بيكر**" بأن ذلك يتطلب شرحا طويلا، فأنهت السيدة "**كلايتون**" الحديث بقولها:

– ليكن ذلك في وقت آخر، أما الآن فدعني أرشدك إلى غرفتك. وعندما خلا "**بيكر**" إلى نفسه.. أخذ يتفقد الغرفة ويده في جيبه.. فشعر فجأة بأن في قاع الجيب ورقة مطوية لم يتذكر أنه وضعها فيه. ألا يحتمل أن يكون "**كارمايكل**" قد دسها في جيبه عندما تظاهر بأن قدمه زلت فاستند إليه؟

أخرج الورقة من جيبه وبسطها وتبين أنها قد طويت مرارا من قبل حتى كادت تبلى، وأنها كتبت منذ ثمانية عشر شهرا. ذلك إذا صح التاريخ المسجل فيها.. كانت تتضمن توصية من الماجور "**ويلبر فورنس**" بشخص يدعى "**أحمد محمد**"، قال فيها: إنه رجل نشيط، أمين، يجيد قيادة سيارات النقل وإصلاحها.

وقطب "**ريتشارد بيكر**" حاجبيه. واستغرق في التفكير. من المحقق أن "**كارمايكل**" كان يشعر بأن حياته مهددة فلجأ إلى القنصلية طلبا للنجاة ولكن الخطر تعقبه إلى هناك. والعدو الذي يخشاه كان له بالمرصاد في قاعة الاستقبال. ومما لا شك فيه أن الرجل البدين الذي بدا في مظهر المندوبين التجاريين قد تلقى أمرا صريحا محددا، فلم يتردد وحاول الفتك بـ"**كارمايكل**" في دار القنصلية في وضح النهار وأمام شهود. مما يدعو إلى الاعتقاد بأن الأمر عاجل، وعلى جانب عظيم من الأهمية.. ويبدو أن "**كارمايكل**" قد تبين الخطر وأحس بمصدره. فلم يكد يتعرف زميله في الجامعة حتى استغاث به. وحرص على أن ينقل إليه تلك الوثيقة التي قد يكون لها من الأهمية أكثر مما يبدو من مظهرها، فإذا استطاع أعداء "**كارمايكل**" الإيقاع به ولم يجدوا معه الوثيقة، فمن المؤكد أنهم سيواصلون البحث لمعرفة الشخص الذي انتقلت إليه. فماذا يفعل الآن بالوثيقة؟ هل يقدمها

إلى السيد "**كلايتون**" بصفته ممثل حكومة صاحبة الجلالة ملكة "**إنجلترا**"؟ أم يحتفظ بها حتى يعود "**كارمايكل**" لاستردادها؟

وصحت عزيمته على الرأي الثاني، وهو الاحتفاظ بالوثيقة مع اتخاذ الحيطة اللازمة. ولذلك عمد إلى كتابة وثيقة مماثلة، بخط متشابه بقدر الاستطاعة ولكن بمضمون مختلف تماما.

وبعد أن فرغ من ذلك، أجرى يده على نعل حذائه.. ثم مر بها على الورقة وطواها مرارًا ليكسبها مظهر القدم.

ثم تناول الوثيقة الأصلية وغلفها بقطعة من ورق السلوفان، ثم أحاطها بطبقة من الصلصال وصورها في شكل قطعة أثرية وضعها في مكتبه.. أما الوثيقة الزائفة. فإنه دسها في جيبه.

وفي صباح اليوم التالي عندما استيقظ مبكرا ليستقل الطائرة إلى "**الكويت**" وضع يده في جيبه. ولم يجد أثرًا للوثيقة الزائفة.

الفصل السابع

كانت "**فيكتوريا جونز**" تنظر إلى الحياة من خلال منظار وردي وهي جالسة مع السيدة "**كليب**" في قاعة الانتظار المطلة على المطار. لقد مر موظف بالمطار منذ لحظات وأهاب بالمسافرين إلى « "**القاهرة**" و"**بغداد**" و"**طهران**" » أن يستعدوا...

ثلاثة أسماء تحدثت إلى مخيلة "**فيكتوريا**" وذكرتها بكل ما قرأته وسمعته عن الشرق وسحره وغموضه. وطبيعي أن ذكر هذه الأسماء الثلاثة لم يحدث أي أثر في نفس السيدة "**كليب**" التي قضت جانبا كبيرا من عمرها في الطائرات والبواخر والقطارات. كانت "**فيكتوريا**" تنعم بكل دقيقة من حياتها منذ غادرت فندق "**سافوي**" في الصباح، وذلك على الرغم من ثرثرة السيدة "**كليب**" وما طبعت عليه من التفكير بصوت مسموع.. وراحت السيدة "**كليب**" تستعرض زملاءها في الرحلة.. قالت:

ـ هذان الطفلان جميلان حقًا.. ولكن مرافقة الأطفال في الطائرات أمر مزعج.. لابد أنهما إنجليزيان، أما هذا الرجل ذو الثياب الصارخة الألوان فهو فرنسي بغير شك، أما هذا الذي يجلس هناك، فإنه هولندي.. لقد كان يقف أمامنا عند فحص جوازات السفر، يُخيَّل إليّ أنه ليس بين المسافرين أحد من الأمريكيين. ولكن ما هذا؟

لقد مرَّ على جلوسنا هنا أكثر من نصف الساعة.. فلم كل هذا الانتظار؟ وجاءها الجواب على الفور، فقد مر بهما رجل طويل القامة، أشيب شعر الرأس والشاربين يحمل معطفه على ساعده، يضع على رأسه قبعة عريضة الحافة أشبه بقبعات أهل "**المكسيك**"، ويحيط به عدد من موظفي شركة الطيران، يحمل أحدهم حقيبتين ثمينتين. كان الرجل أشبه بالمغامرين الذين نراهم في الأفلام. وسمعت السيدة "**كليب**" الموظفين يتسابقون للرد على أسئلة الرجل:

ـ نعم يا سيد "**روبرت**".

ـ ستقلع الطائرة في الحال يا سيد "**روبرت**". فهمست السيدة "**كليب**":

ـ السيد "**روبرت**"؟ ترى من يكون هذا السيد "**روبرت**"؟ لابد أنه إحدى الشخصيات المهمة. هل هو أحد وزرائكم يا آنسة "**فيكتوريا**"؟

ـ لا أظن ذلك يا سيدة "**كليب**". ومهما يكن من أمر السيد "**روبرت**".. فإنه كان بغير شك إحدى الشخصيات المهمة بدليل أن الطائرة كانت تنتظره، فلم يكد يصل حتى دعي الركاب إلى الصعود..

وأقلعت الطائرة، وانصرفت السيدة "**كليب**" إلى قراءة إحدى القصص، وراحت "**فيكتوريا**" تطل من النافذة، وأرخى سيد "**روبرت**" قبعته على وجهه واستغرق في النوم.

وعندما وصلت الطائرة إلى مطار "كاستل بنيتو" في "**طرابلس**"، كانت الأمطار تهطل بشدة، وأقبل عدد من موظفي الشركة لاستقبال السيد "**روبرت**" ومرافقته إلى جناح فاخر في فندق المطار، بينما قصد المسافرون إلى غرف أخرى بالفندق لقضاء ليلتهم.. وقبل العشاء. تخلفت "**فيكتوريا**" قليلاً في غرفتها؛ لاستبدال

ثوبها، وتصفيف شعرها، وعندما لحقت بالسيدة "**كليب**" التي قضت وقتها في الثرثرة مع بعض المسافرين، قالت لها هذه الأخيرة:

– لقد اكتشفت حقيقة هذا السيد الذي يحيطه موظفو شركة الطيران بكل الرعاية والاحترام، إنه السيد "**روبرت كرفتون لي**" الرحالة المشهور.. لابد أنك سمعت عنه. فهزت "**فيكتوريا**" رأسها علامة الإيجاب.. كانت قد سمعت عنه حقًّا، ورأت صورته في بعض الصحف، وقرأت أنه يعرف "**الصين**" من الداخل كما لا يعرفها أي إنسان آخر، وأنه أحد الأوربيين القلائل الذين ارتادوا "**التبت**" وزاروا "**الهاسا**" .. وأنه يعرف "**كردستان**" و"**آسيا الصغرى**" كأهلهما.. وقد وضع عدة كتب أعيد طبع بعضها أكثر من مرة. وقد كان رأي "**فيكتوريا**" في الرجل أنه يبدو أقل أهمية من كتبه، ولكنها لم تقل ذلك للسيدة "**كليب**" .

الفصل الثامن

كانت مكاتب شركة "**جراموفون فالهالا**" تقع في الطابق الخامس في إحدى العمارات الكبيرة في حي رجال المال والأعمال في "**لندن**" .وفي إحدى الغرف، كان رجل يقرأ كتابا في الاقتصاد السياسي حين دق جرس التليفون فتناول السماعة، وقال بصوت هادئ:

– شركة "**جراموفون فالهالا**" ..

– أنا "**ساندرز**" ، لدي تقرير عن "**هـ. ش**" لقد فقدنا أثرها. فساد صمت عميق..ثم صاح رجل الشركة بصوت حاد:

– ماذا قلت؟

– قلت إننا فقدنا أثر "**هيلين شيل**" .

– لا تذكر أسماء.. إنك ارتكبت خطأ جسيما.. كيف حدث ذلك؟

– ذهبنا إلى العيادة التي حدثتك عنها.. والتي أجريت فيها جراحة لأختها.

– ثم؟

– لقد نجحت الجراحة، وظننا أن "هـ. ش" ستعود إلى فندق "**سافوي**"، ولكنها لم تبرح العيادة التي وضعناها تحت رقابة مشددة..

– ولكنها مع ذلك بارحتها؟

– ذلك ما اكتشفناه فيما بعد، وقد ثبت لنا أنها غادرتها في إحدى سيارات الإسعاف غداة إجراء الجراحة.

– إذن فقد خدعتكم؟

– يُخيّل إليّ ذلك. ولكني أستطيع أن أقسم أنها لم تكن تعلم أن هناك من يتعقبها.. فقد عملنا بحذر شديد. وكنا ثلاثة أشخاص.. و..

– احتفظ بهذه التفصيلات لنفسك. وإلى أين ذهبت سيارة الإسعاف بـ"هـ. ش"؟

– إلى مستشفى "الجامعة".

– وماذا قالوا في المستشفى؟

– قالوا إن سيارة الإسعاف حملت إليهم امرأة مريضة ومعها ممرضة هي بلا شك "هـ. ش".. وأن الممرضة اختفت عقب تسليم المريضة. ولا أحد يعلم أين ذهبت.

– وماذا قالت المريضة عنها؟

– لا شيء، لأنها كانت تحت تأثير المخدر.

– والخلاصة أن "هـ. ش" يحتمل الآن أن تكون في أي مكان؟

– نعم، ولكنها إذا عادت إلى فندق "**سافوي**" فإن..

– كفى سخفا. إنها لن تعود إلى فندق "**سافوي**".

– هل نبحث عنها في الفنادق الأخرى؟

– بالتأكيد. ولكن البحث لن يسفر عن نتيجة؛ لأنها تعلم أن ذلك هو أول شيء ستفعلونه.

– إذن ما هي تعليماتكم؟

– ابحثوا عنها في الموانى، في "**دوفر**" و"**فولكستون**" وغيرهما، وابحثوا في شركات الطيران. خصوصا تلك التي تمر طائراتها بـ"**بغداد**"، وافحصوا سجلات

الأشخاص الذين حجزوا أماكن للسفر خلال الأسبوعين القادمين.. ولا تنسوا أن من المحقق أنها سوف تسافر تحت اسم مستعار.

– إن حقائبها لاتزال في فندق "**سافوي**" .. ومن المحتمل أن تطلب إرسالها إليها..

– لا أمل في ذلك.. ربما كنت أنت مغفلا، أما هي فإنها ليست كذلك. هل تعلم أختها شيئا؟

– إننا على اتصال بالممرضة التي ترعاها في العيادة الطبية.. وقد علمنا أن الأخت تعتقد أن "**هـ. ش**" قد سافرت إلى "**باريس**" في مهمة خاصة بالسيد "**مورجنتال**"، وأنها تقيم هناك في فندق "**ريتز**". كذلك تعتقد الأخت أن "**هـ. ش**" ستعود إلى "**أمريكا**" في اليوم الثالث والعشرين من هذا الشهر..

– معنى ذلك أن "**هـ. ش**" لم تقل شيئا ولم تصارحها بشيء.. ولا غرابة في ذلك.. عليكم الآن أن تهتموا بشركات الطيران.. إن "**هـ. ش**" تزمع السفر إلى "**بغداد**"، وهي لكي تصل إليها في الوقت المناسب، لا مفر لها من السفر بإحدى الطائرات وفيما عدا ذلك يا "**ساندرز**"..

– نعم؟

– لا ترتكب غلطة أخرى.. سنمنحك فرصة ثانية.. ولكنها ستكون الأخيرة..

الفصل التاسع

نظر "**ليونيل شريفنهام**" – الملحق الشاب بالسفارة البريطانية – إلى الطائرة التي تحلق فوق المطار وارتسمت على وجهه مظاهر القلق.. فقد رأى سحبا رملية تتجمع في الجو وتنذر بعاصفة لم يتوقعها أحد.. قال لصديقه الذي يقف بجواره:

– أراهن على أن هذه الطائرة لن تستطيع الهبوط.

فقال صديقه "**هارولد**":

– إذن ماذا سيفعل قائدها؟

– أعتقد أنه سيهبط في "**البصرة**" فالجو هناك أفضل.

– هل في الطائرة من يهمك أمره؟ فتنهد "**شريفنهام**" وأجاب:

– إنني في مأزق لا أحسد عليه.. فالسفير الجديد لم يصل بعد، والسيد "**لانسرون**" – الذي يقوم بعمل السفير – موجود الآن في "**إنجلترا**"، والسيد "**رايس**" – مستشار السفارة لشؤون الشرق – مصاب بحمى معوية، ودرجة حرارته أربعون، والسيد "**بيست**" سافر إلى "**طهران**"، وهكذا لم يبق من المسؤولين لاستقبال الطائرة سواي.. إن في الطائرة شخصا لا أعرف عنه شيئا سوى أنه رحالة يقضي وقته على ظهور الجمال في بلاد لم يسمع عنها أحد.. ولكن يبدو أنه شخصية مهمة، فقد صدرت إليّ الأوامر بأن أنزل على إرادته وألبي كل رغباته.. فإذا هبطت به الطائرة في "**البصرة**" فمن المحقق أنه سيكون ضيق الصدر محنقا حين يصل إلى هنا.. ثم إنني لا أعرف ماذا ينبغي عمله إذا هبطت به الطائرة في "**البصرة**".. ربما كان أفضل الحلول أن أرسل إليه إحدى طائرات سلاح الطيران لإحضاره .. ولكنني أعلم أن هناك قطارا يغادر "**البصرة**" مساء اليوم وربما كان صاحبنا يفضل أن... ولم يتم "**شريفنهام**" عبارته وتنهد مرة أخرى..

لقد أمضى في "**بغداد**" ثلاثة أشهر لازمه خلالها سوء الطالع، حتى بات يشعر بان أية غلطة جديدة قد تودي بمستقبله. وأحس "**شريفنهام**" كأن عبئًا ثقيلا أزيح عن صدره حين رأى الطائرة تهبط بسلام وتشق طريقها في الممر وتتوقف في المكان المخصص لها. راح يراقب المسافرين وهم يغادرون الطائرة، وسرعان ما عرف ضالته من قبعته الغريبة.. فتقدم لاستقباله وبادره بقوله:

– السيد "**روبرت كرفتون لي**" فيما أعتقد؟ أنا "**شريفنهام**" من السفارة.. وكان رد السيد "**روبرت**" يفتقر إلى اللباقة ولكن الشاب تجاوز عنه. ورافق الضيف إلى السيارة التي كانت في الانتظار وركب معه.. وقال على سبيل جس النبض:

– لقد خُيِّل إليَّ في لحظة ما أن الطائرة لن تستطيع الهبوط، وأنها قد تضطر إلى مواصلة الرحلة إلى "**البصرة**".. إن العاصفة الرملية.. فقاطعه السيد "**روبرت**"

بقوله:

– لو أن هذا قد حدث لكان كارثة بالنسبة إليَّ.. هل تعرف أيها الشاب أن أي تغيير يطرأ على برنامجي قد يكون له من النتائج الخطيرة ما لا يستطيع أحد تصوره؟ وأدرك "**شريفنهام**" مدى غرور الرجل وصلفه، ولكنه أجاب باحترام:

– إنني واثق بذلك يا سيدي.

– هل تعرف متى سيصل السفير إلى "**بغداد**"؟

– إن موعد قدومه لم يحدد بعد.

– سوف يؤسفني ألا أراه. لقد قابلته آخر مرة في "**الهند**".. وصمت قليلاً ثم سأل:

– ألا يزال "**رايس**" هنا؟

– نعم يا سيدي إنه مستشار الشؤون الشرقية.

– إنه رجل له أهميته.. ويسعدني أن أقابله.

– مما يؤسف له يا سيدي أنه في المستشفى تحت الملاحظة. إذ يبدو أنه أصيب بحمى معوية وحالته تثير قلق الأطباء. فتحول إليه السيد "**روبرت**" بحدة وسأله:

– ومتى أدخل المستشفى؟

– أمس الأول. فقطب السيد "**روبرت**" حاجبيه، وتلاشى صلفه وتمتم قائلا:

– من يدري، فلعله أصيب بحمى "**شيل**"!!

ولم يكن "**شريفنهام**" قد سمع عن مرض بهذا الاسم فلزم الصمت. واقتربت السيارة من جسر الملك "**فيصل**" وانحرفت يسارا في الطريق إلى مقر السفارة. وفجأة، انحنى السيد "**روبرت**" إلى الأمام وقال للسائق:

– هل لك أن تتوقف لحظة أمام هذا الحانوت؟ فأطاع السائق وأوقف السيارة أمام حانوت صغير مليء بشتى أنواع الأواني الخزفية. وغادر الحانوت في هذه اللحظة رجل أوربي سار في الطريق إلى الجسر، وخيل إلى "**شريفنهام**" أنه عرف فيه الكابتن "**كروسبي**" الموظف بشركة البترول، وكان "**شريفنهام**" قد التقى به مرة أو مرتين. ووثب السيد "**روبرت**" من السيارة، ودخل الحانوت، وتناول آنية، ودار

بينه وبين صاحب الحانوت حديث باللغة العربية، وكانا يتكلمان بسرعة، فلم يفهم "**شريفنهام**" - ومعرفته بهذه اللغة محدودة - شيئا من حديثهما.. وراح السيد "**روبرت**" يفحص الأواني، ويلقي بعض الأسئلة وصاحب الحانوت يجيبه بسيل من الكلمات.

وأخيراً وقع اختيار السيد "**روبرت**" على إناء صغير ذي عنق طويل ضيق، ووضع قطعة من النقود في يد صاحب الحانوت وعاد إلى السيارة.. وقال يحدث "**شريفنهام**" :

- إن هذه الأواني الخزفية تصنع بنفس الطريقة منذ آلاف السنين.. وقد رأيت مثيلاتها في بعض المناطق الجبلية في "**أرمينيا**" . ووضع إصبعه في عنق الإناء وهو يتكلم، فقال "**شريفنهام**" :

- إنها بدائية الصنع..

- إنني أوافقك على أنها لا قيمة لها من الناحية الفنية. إنني أحتفظ بمجموعة ضخمة من الأواني الخزفية.

❋❋❋❋❋

ووصلت السيارة إلى السفارة فطلب السيد "**روبرت**" اقتياده إلى غرفته فورا، ولاحظ "**شريفنهام**" أن اهتمام ضيفه بالإناء قد فتر بمجرد فراغه من الحديث عنه.. حتى إنه نسيه في السيارة. ورأى "**شريفنهام**" من واجبه أن يحمله إليه، وشكره السيد "**روبرت**" بلهجة الشخص الذي يفكر في شيء آخر. وما إن انصرف "**شريفنهام**" حتى اقترب السيد "**روبرت**" من نافذة غرفته. وبسط الورقة التي أخرجها بإصبعه من عنق الإناء. كانت رسالة تتألف من سطرين. فقرأها ثم أحرقها ودق الجرس، وقال للخادم الذي أقبل:

- هل لك أن تطلب إلى السيد "**شريفنهام**" أن يأتي لمقابلتي؟

وجاء "**شريفنهام**" فابتدره "**روبرت**" قائلا:

- لقد طرأ على برنامجي تعديل مهم، فهل أستطيع الاعتماد على كتمانك

إياه؟

– بغير شك يا سيدي.

– حسناً.. إنني لم أقم بزيارة "**بغداد**" منذ بضعة أعوام، وبالتحديد، منذ نهاية الحرب، فهل لا تزال الفنادق على الضفة الأخرى للنهر؟

– نعم يا سيدي.. في شارع "**الرشيد**".

– على امتداد "**دجلة**"؟

– نعم – وأكبر هذه الفنادق هو فندق "**بابل**"، الذي تنزل فيه الشخصيات الرسمية.

– هل تعرف فندقا يسمى فندق "**تيو**"؟

– نعم. إن زبائنه كثيرون، وطعامه جيد، وصاحبه المدعو "**ماركوس تيو**" رجل عجيب يعد من معالم "**بغداد**".

– حسنا.. إنني أريدك أن تحجز لي غرفة في فندق "**تيو**".

فبهت "**شريفنهام**" وظن أنه لم يسمع جيدا.

قال بلسان متلعثم:

– هل تعني أنك لن تقيم في السفارة؟ لقد اتخذنا جميع الإجراءات لتوفير أسباب الراحة. فقاطعه السيد "**روبرت**":

– أعلم ذلك.. ولكنني يجب أن أقوم بمفاوضات سرية على جانب عظيم من الأهمية والخطورة.. وقد علمت للتو واللحظة أنني لن أستطيع إنجاز هذه المفاوضات في دار السفارة. ولذلك أريدك أن تحجز لي غرفة في فندق "**تيو**" وسأغادر السفارة سرًّا، أي أنني لن أكون في حاجة إلى سيارة السفارة لتذهب بي إلى "**تيو**". ثم إنني أريد أن تحجز لي مكانا على الطائرة التي ستقلع إلى "**القاهرة**" بعد غد.

– ولكنني كنت أعلم أنك ستقضي في "**بغداد**" خمسة أيام.

– قلت لك إن برنامجي قد تغير. ولابد لي أن أبرح "**بغداد**" إلى "**القاهرة**" عقب الفراغ من مهمتي هنا.. إن بقائي في "**بغداد**" سيكون خطرا عليّ..

– خطر عليك؟!

فارتسمت على شفتي السيد "**روبرت**" ابتسامة رقيقة أذهلت "**شريفنهام**" . لقد تغير الرجل فجأة، فلم يعد ذلك الإنسان المتعجرف الذي ذكره – حين رآه في المطار – بعجرفة الضباط الألمان. واستطرد السيد "**روبرت**" قائلا:

– إنني في العادة لا أحفل بسلامتي الشخصية، ولكن الأمر – في هذه المرة – لا يتعلق بي وحدي. إنه يمس أشخاصا عديدين، لذلك أرجو أن تعمل على تنفيذ تعليماتي.. أما أنا فلن أغادر السفارة قبل المساء، وسأبقى في غرفتي لا أبرحها حتى ذلك الوقت. ولشد ما كانت دهشة "**شريفنهام**" حين أردف السيد "**روبرت**" قائلا:

– أنا رسميا مريض بالملاريا.. ولذلك لن أتناول طعاما.

– ولكننا نستطيع أن نقدم إليك الطعام في غرفتك..

– لا ضرورة لذلك.. إن الصوم أربعا وعشرين ساعة لن يقتلني، فافعل كما قلت لك.

الفصل العاشر

كانت أولى انطباعات "**فيكتوريا**" لدى وصولها إلى "**بغداد**" هو الإحساس بخيبة الأمل، فإنها لم تر وهي في طريقها إلى فندق "**تيو**" سوى الرمال المحرقة، والجو الخانق، والشوارع المكتظة. وقد حرص "**ماركوس تيو**" – صاحب الفندق – على أن يستقبل السيدة "**كليب**" بنفسه. كان لا يزال في مقتبل العمر، ولكنه ضخم الجسم، مترهل الجسد. هتف حالما وقع بصره عليها:

– طاب صباحك يا سيدة "**كليب**" . كم نحن سعداء بلقائك.. ولكن ماذا أصاب ذراعك؟ إنك جئت في يوم عاصف، وقد خشيت ألا تتمكن الطائرة من الهبوط. لقد صح عزمي أكثر من ذي قبل على ألا أسافر بالطائرات..

لماذا العجلة؟ إن بضع ساعات أو بضعة أيام لا تقدم ولا تؤخر.. آه! أرى أنك

أحضرت معك شابة جميلة! نحن هنا في "**بغداد**" نرحب دائمًا بالحسناوات اللاتي لم يسبق لنا رؤيتهن.. هل تسمحان بأن أقدم لكما شيئا؟

وتحت إلحاح "**ماركوس**" وافقت "**فيكتوريا**" على أن تتناول قدحا من الشراب ثم صعدت إلى غرفتها، ولاحظت حين نظرت إلى نفسها في المرآة أن شعرها قد تغير لونه بفعل ذرات الرمل الناعم التي تخللته..

ولكنها وجدت نفسها في المساء أفضل حالا، وأكثر نشاطا بعد أن اغتسلت واستبدلت ثيابها وتناولت غداء شهيا وغفت في فراشها في فترة الظهيرة.

وكانت العاصفة الرملية قد هدأت، فخرجت إلى شرفة غرفتها، ورأت نهر "**دجلة**" يسبح في ضوء القمر، وعلى ضفته الأخرى على امتداد البصر كانت بعض بيوت مبعثرة بين أشجار ونخيل لا حصر لها.

وتنبهت "**فيكتوريا**" فجأة إلى حديث يدور بين شخصين في حديقة الفندق تحت شرفتها مباشرة، فأرهفت أذنيها. ولكن مع من تتحدث هذه السيدة الثرثارة؟ وأطلت برأسها من فوق حاجز الشرفة، ورأت السيدة "**كليب**" تجالس سيدة إنجليزية من ذلك الطراز الفضولي الذي يصادفه الإنسان كثيرا في رحلاته في الخارج. وكانت السيدة "**كليب**" تقول:

– لا أعلم ماذا كنت سأفعل بدونها.. إنها أظرف فتاة قابلتها في حياتي، ثم إنها تنتمي إلى أسرة كريمة، فهي ابنة أخ أسقف "**لانجو**".

– أسقف ماذا؟!

– "**لانجو**".. أظن أن هذا هو الاسم الذي ذكرته.

– لا يوجد أساقفة بهذا الاسم.

فقطبت "**فيكتوريا**" حاجبيها.. يبدو أن هذه السيدة ليست ممن يمكن خداعهم بسهولة. قالت السيدة "**كليب**":

– ربما سمعت الاسم خطأ.. مهما يكن من أمر فإنها فتاة ظريفة مهذبة.

– أحقًا؟ ويبدو أن السيدة لم تقتنع، فقررت "**فيكتوريا**" أن تتجنبها بقدر الاستطاعة، واستلقت في فراشها، وراحت تستعرض موقفها.. إنها الآن في

"**تيو**" .. وواضح أنه من فنادق الدرجة الأولى، بينما كل ما تملكه لا يتجاوز أربعة جنيهات وسبعة عشر شلنا. لقد تناولت طعاما شهيا، ومن المحقق أن السيدة "**كليب**" لن تدفع ثمن الطعام؛ لأن مسؤوليتها حيالها قد انتهت بوصولها إلى "**بغداد**" .. إنها لم تعد الآن في خدمة السيدة "**كليب**" التي ستسافر بقطار الليل إلى "**كركوك**".

ترى هل ستقدم لها السيدة "**كليب**" منحة عند رحيلها؟

ربما.. ولكن ذلك ليس مؤكداً، خصوصا وأن هذه السيدة الطيبة القلب لا تعرف شيئا عن أزمتها المالية. لم يبق هنا لها سوى شخص واحد تستطيع الاعتماد عليه، وذلك الشخص هو "**إدوارد**" .. ولكن أين ستجده؟ وكيف تستفسر عنه؟ واكتشفت "**فيكتوريا**" فجأة أنها لا تعرف لقبه.. ولكن من حسن الحظ أنها تعلم أنه يعمل سكرتيرا للدكتور "**راتبون**". والدكتور "**راتبون**" شخصيته معروفة دون شك. صففت "**فيكتوريا**" شعرها، وأصلحت من زينتها، وهبطت إلي بهو الفندق فاستقبلها "**ماركوس**" بابتسامة عريضة. هتف حالما رآها مقبلة:

– آنسة "**جونز**" كم يسعدني أن أراك! وسأكون سعيدا إذا وافقت على تناول شيء معي.. إنني أعبد الإنجليزيات في "**بغداد**". صديقتي. هلمي بنا إلى المشرب.. فلم تعارض "**فيكتوريا**"، وما إن جلست في المشرب، وأمامها قدح من الشراب حتى شرعت في الاستفسار عما يهمها معرفته. سألته:

– هل تعرف شخصا يدعى الدكتور "**راتبون**" وصل إلى "**بغداد**" مؤخرا؟

– إنني أعرف كل الناس في "**بغداد**"، وكل الناس يعرفونني، والجميع أصدقائي..

– أنا واثقة بذلك.. ولكن هل تعرف الدكتور "**راتبون**"؟

– في الأسبوع الماضي، جاءني القائد الأعلى لسلاح الطيران في الشرق الأوسط، ولم أكن رأيته منذ ثلاثة أعوام فقال لي إنني أصبحت بدينا..

– آه! لكم أحب هذا الرجل! إنه ظريف حقًّا.

– والدكتور "**راتبون**" .. أهو ظريف أيضاً؟

– إنني أحب أن أرى حولي وجوها باسمة، وأحب الشباب المرح الظريف الذين هم على شاكلتك..

– هل لك في قدح آخر من الشراب؟

– كلا.. شكرا..

– إن قدحا آخر لا يقدم ولا يؤخر..

– والدكتور "**راتبون**"؟

– السيدة "**كليب**" أمريكية.. إن بين الأمريكيين أشخاصًا ظرفاء إلى أقصى حد. إليك مثلا السيد "**سومرز**" إنه حين يأتي إلى "**بغداد**" يقضي اليوم الأول في الشراب، ويلزم فراشه طوال الأيام الثلاثة التالية. وفي رأيي أن ذلك إسراف.

– أريد منك خدمة يا سيد "**تيو**"؟ فابرقت أسارير "**ماركوس**" وقال:

– إن هذا كل ما أتمنى.. قولي ماذا تريدين فأعمل على تنفيذه فورا..

– أريد مقابلة الدكتور "**راتبون**".. إنه جاء إلى "**بغداد**" منذ بضعة أيام ومعه.. ومعه سكرتير..

– "**راتبون**"؟ إنني لا أعرفه.. فهو ليس من عملاء "**تيو**". وكانت لهجة الرجل صريحة في الدلالة على أنه لا يعترف بوجود شخص ليس من عملاء فندقه، فسألته "**فيكتوريا**":

– هل توجد فنادق أخرى؟

– بالتأكيد.. يوجد فندق "**بابل بالاس**" وفندق "**سنحريب**" وفندق "**زبيدة**" وجميعها من فنادق الدرجة الأولى.. ولكنها لا تضارع "**تيو**".

– هذا أمر مؤكد... ولكن ألا تعلم ما إذا كان الدكتور "**راتبون**" ينزل في أحد هذه الفنادق؟ إنه يدير معهدا.. أو جمعية ثقافية..

– هذا شيء جميل.. فنحن جميعا في حاجة إلى الثقافة وخصوصًا الثقافة الموسيقية.. وفيما يختص بي. فإنني أعبد السيمفونيات. وخصوصًا القصيرة منها. وأدركت "**فيكتوريا**" أنها تضيع وقتها عبثا.. صحيح أن الرجل لبق. ولكن أحاديثه مهما تتشعب تلتق كلها عند نقطة واحدة.. هي "**ماركوس**" نفسه.

ورفضت الفتاة القدح الثالث الذي عرضه عليها "**ماركوس**". وغادرت صالة الفندق وهي تترنح.. وقصدت إلى الشرفة واستندت إليها، وراحت تتأمل النهر. وما هي إلا لحظة حتى سمعت خلفها صوتا يقول:

– معذرة يا آنسة.. ولكن يجب أن ترتدي شيئا يقيك من البرد. نحن لسنا في "**إنجلترا**".. والجو هنا حار وخانق نهاراً ولكنه شديد البرودة حالما تغيب الشمس.

فاستدارت "**فيكتوريا**" ووجدت نفسها وجها لوجه مع السيدة التي كانت تتحدث مع السيدة "**كليب**" تحت شرفتها. كانت جالسة على مقعد وثير، وعلى ركبتيها غطاء. وحول عنقها شملة من الفرو.. وأمامها قدح مليء بالشراب. قالت "**فيكتوريا**":

– شكرا لك.. وهمت بدخول الفندق. ولكن يبدو أن السيدة كانت مصممة على التحدث إليها. قالت:

– يبدو أنني لم أقدم إليك نفسي. أنا السيدة "**كارديو ترينش**"..

وكان واضحا من صوتها ولهجتها أن لأسرة "**كارديو ترينش**" مكانة مرموقة. واستطردت السيدة قائلة:

– أعتقد أنك جئت إلى "**بغداد**" مع تلك السيدة الأمريكية. السيدة "**هاملتون كليب**"؟

– نعم.. إنها قالت لي إنك ابنة أخ أسقف "**لانجو**"؟

– هل قالت لك ذلك؟ وابتسمت ابتسامة ذات مغزى فقالت السيدة:

– إنها أخطأت بغير شك..

– الواقع أن الأمريكيين كثيرا ما يخلطون بين الأسماء. إن الاسم "**لانجو**" قريب الشبه من "**لانجاو**" إن عمي أسقف "**لانجاو**"..

– "**لانجاو**؟

– نعم. إنها جزيرة صغيرة في "**الباسفيك**".

– آه! ولم تكن السيدة "**كارديو ترينش**" قد سمعت عن جزيرة بهذا الاسم، ولكنها قالت:

– إن ذلك يوضح الحقيقة.. ولكن ماذا تفعلين في "**بغداد**"؟

وتحرجت "**فيكتوريا**" من أن تقول إنها إنما جاءت للبحث عن شاب دار بينها وبينه حديث في إحدى الحدائق العامة في "**لندن**".. ولكن من حسن الحظ أنها كانت قوية الذاكرة، وقالت:

– لقد جئت للحاق بعمي الدكتور "**بونسفوت جونز**".

– إنه رجل ظريف ولكنه سريع النسيان. لقد سمعت إحدى محاضراته في "**لندن**" في العام الماضي، وأقول لك الحق إنني لم أفهم منها كلمة واحدة. الواقع أنه مر بـ"**بغداد**" منذ أسبوعين، وأعتقد أنه قال شيئا عن فتيات سوف يلحقن به.

وأحست "**فيكتوريا**" بأن مركزها قد توطد فسألت:

– ألا تعلمين إذا كان الدكتور "**راتبون**" موجوداً في "**بغداد**" أم لا؟

– أعتقد أنني قرأت أخيرا أنه سيلقي محاضرة بالمعهد يوم الخميس القادم موضوعها: «الإخاء في العلاقات الدولية».. وإذا أردت رأيي.. فإنني أعتقد أنه يعيش في الخيال.. إن محاولة التقريب بين الشعوب لا تسفر عادة إلا عن تباعدها.. ولست أرى أية فائدة من إقدام الدكتور "**راتبون**" على ترجمة مؤلفات "**شكسبير**" أو "**ملتون**" إلى العربية والصينية والهندستانية.

– هل تعلمين أين يقيم؟

– أظن أنه يقيم في فندق "**بابل بالاس**".. ولكن مقر عمله في "**غصن الزيتون**".. بالقرب من المتحف، على بعد بضع خطوات من سوق النحاس.. "**غصن الزيتون**" اسم مضحك لمعهد يبعث على الضحك.. معهد تتردد عليه فتيات بعوينات سميكة يرتدين غلالات رقيقة، ولا يغسلن أعناقهن..

– إنني أعرف سكرتيره..

– آه! ذلك الشاب الوسيم.. ماذا كان اسمه؟ "**إدوارد**".. نعم إنه يدعى "**إدوارد**".. شاب ظريف ظلموه بوضعه في بيئة المثقفين التي لا ينتمي إليها من قريب أو من بعيد.. وقد قيل إنه أبلى بلاء مجيدا في الحرب.. ولكن يبدو أنه في حاجة إلى هذه الوظيفة.. إن جميع الفتيات مدلهات به.. وبهذه المناسبة كيف حال السيدة "**بونسفوت جونز**"؟ قيل لي إنها كانت مريضة جداً..

ووجدت "**فيكتوريا**" ـ بعد أن عرفت ما كانت تريد معرفته ـ أن من الحماقة أن تتورط في أكاذيب جديدة، فألقت نظرة على ساعتها وصاحت:

ـ يا إلهي! الساعة الآن السادسة والنصف، والسيدة "**كليب**" تنتظرني؛ لكي أساعدها في ارتداء ثيابها.. يجب أن أذهب.. وكانت السيدة "**كليب**" تنتظرها حقًا.. فانطلقت إلى غرفتها وهي تكاد تطير فرحا.. إنها سترى "**إدوارد**" غدا. أما أولئك الفتيات المدلهات به فإنها لا تقيم لهن وزنا.. بحسبها أن تلتقي بـ"**إدوارد**" فتستقيم الأمور.. ومرت الساعات التالية بسرعة. تناولت طعام العشاء مع السيدة "**كليب**".. ثم رافقتها إلى المحطة.. حيث أجلستها في القطار المسافر إلى "**كركوك**" وأوصت بها بعض المسافرات.. وعندما بدأ القطار يتحرك قالت السيدة "**كليب**" وهي تضع في يد "**فيكتوريا**" ظرفا ضخما:

ـ هذه هدية صغيرة للذكرى فتقبليها يا آنسة "**جونز**" مع وافر شكري..

ـ كم أنت لطيفة يا سيدة "**كليب**" ما كان يجب أن تفعلي ذلك..

ثم استقلت إحدى سيارات الأجرة إلى الفندق، وأسرعت إلى غرفتها، وفضت الظرف بأصابع ترتجف، ووجدت به جوربا من النايلون.. وكان يمكن أن ترحب بهذه الهدية في ظروف أخرى.. فإن دخلها لم يسمح لها قط بأن تبتاع جوربا من النايلون، ولكنها كانت تأمل في شيء آخر.. بعض النقود في ظروفها الحالية، كانت أفضل ألف مرة من الجورب.. مما يؤسف له أن رقة السيدة "**كليب**" وكياستها منعتاها من أن تقدم لها ورقة مالية ذات خمسة دنانير أو أكثر.. مهما يكن من أمر.. فإن الأمور ستكون أفضل غداً حين تلتقي بـ"**إدوارد**".. وبهذا الأمل، أوت "**فيكتوريا**" إلى فراشها.. وبعد خمس دقائق كانت تغط في النوم.

الفصل الحادي عشر

كانت الشمس قد أشرقت منذ ساعة حين استيقظت "**فيكتوريا**" وارتدت ثيابها وأطلت من شرفتها. ولشد ما كانت دهشتها حين رأت رجلاً أشيب الشعر

يجلس في الحديقة وظهره نحوها، فقد عرفت في الرجل السيد "**روبرت كرفتون لي**". لم يخطر ببالها قط أن رجلا ذا شخصية بارزة يمكن أن يقيم في مكان آخر غير السفارة..

كانت عيناه تنظران نحو الحقول البعيدة، ولاحظت أن منظارا مكبرا يتدلى من مسند مقعده، واستنتجت من وجود المنظار أنه ربما كان يرقب الطيور وهي تحلق في السماء، فقد عرفت في "**إنجلترا**" شابا كانت له مثل هذه الهواية.. وغادرت "**فيكتوريا**" غرفتها وهبطت إلى الشرفة التي تصل ما بين جناحي الفندق، وقابلت هناك "**ماركوس تيو**". فسألته:

– هل يقيم السيد "**روبرت كرفتون لي**" في هذا الفندق؟ لقد خُيِّل إليَّ أنني.. فقاطعها:

– نعم، إنه يقيم هنا.. إنه رجل ظريف.

– هل تعرفه جيداً؟

– بالتأكيد. فقالت "**فيكتوريا**" لنفسها: «يبدو أن جميع الناس في نظر "**ماركوس تيو**" ظرفاء»..

وتناولت فطورها، وقررت أن تنطلق للبحث عن "**غصن الزيتون**".. إن المتحف الذي تحدثت عنه السيدة "**كارديو ترينش**" لا يمكن أن يكون بعيدا.. واتفق أنها قابلت "**ماركوس**" مرة أخرى وهي تهم بالانصراف، فسألته عن المتحف وأجاب:

– المتحف؟ إنه عظيم. مليء بالآثار القديمة الرائعة. إنني لم أذهب إليه من قبل، ولكن أصدقائي – علماء الآثار– يقضون كل يومهم هناك كلما قدموا إلى "**بغداد**"..

– ولكن أين موقعه؟

– سيري في شارع "**الرشيد**" حتى تصلي إلى جسر الملك "**فيصل**" فاعبريه، ثم اجتازي شارع "**البنوك**" واعبري جسرا صغيرا هناك. إن المتحف في شارع ضيق إلى يسار الجسر. اطلبي هناك السيد "بيتون إيفانز" أمين المتحف. إنه رجل ظريف له زوجة رائعة جاءت معه إبان الحرب.

– الواقع، إنني لا أريد زيارة المتحف ذاته. ولكني أبحث عن مقر جمعية أو معهد يقال له "**غصن الزيتون**" فهل تعرفه؟

– لا.. وعلى كل حال فإن المتحف بعيد ويجب أن تستقلي إحدى سيارات الأجرة..

– وهل يستطيع السائق أن يذهب بي إلى "**غصن الزيتون**"؟

– لا بغير شك.. إن السائقين هنا لا يعرفون شيئا على الإطلاق.. وإذا أراد الإنسان الذهاب إلى مكان ما فعليه أن يرشد السائق.

– لعل من الأفضل أن أذهب سيرا على قدمي.

وبدأت "**فيكتوريا**" رحلتها، وما لبثت أن اكتشفت أن المدينة تختلف كل الاختلاف عما تخيلتها، فحركة المرور كثيفة، وأبواق السيارات لا تكف عن الضجيج، والمتاجر مكدسة بالبضائع المستوردة، وليس هناك سوى عدد قليل من النساء المحجبات.. واجتازت جسر الملك "**فيصل**"، وواصلت سيرها، ووجدت نفسها دون أن تشعر أو تستفسر أمام مبنى المتحف.. ولكن أين معهد "**غصن الزيتون**"؟

ولما كانت تجهل اللغة العربية، فإن الأسئلة التي ألقتها على التجار ظلت بغير إجابة. أما رجال شرطة المرور فكانوا منهمكين في عملهم، فلم تتح لها فرصة للتفاهم معهم، وأخيراً سارت كيفما اتفق.. وقادتها الصدفة وحدها إلى شارع ضيق تنبعث منه ضجة شديدة.. ووجدت فجأة أنها في سوق النحاس الذي حدثتها عنه السيدة "**كارديو ترينش**".. وأثارت عملية طرق النحاس وتصنيعه وزخرفته فضولها، فقضت هناك نحو ساعة نسيت خلالها كل شيء عن "**غصن الزيتون**" وأحست أنها في بلاد الشرق حقًّا.. وعندما غادرت السوق، وخرجت من الزقاق المقبو الذي يضم النحاسين. وجدت نفسها بغتة أمام مبنى على بابه لافتة تحمل اسم "**غصن الزيتون**"، واجتازت دهليزاً ينتهي بقاعة فسيحة وجدت فيها بضعة مقاعد، ومائدتين أو ثلاثا عليها كتب ومجلات.

ولما ألفت عيناها الضوء الخافت الذي يضيء الغرفة تبينت دواليب الكتب التي

تغطي الجدر . ورأت فتاة تقبل عليها وتسألها عما في استطاعتها أن تفعله من أجلها.

كانت الفتاة ترتدي بنطلونا من القطيفة، وقميصا جميلا برتقالي اللون، وقد أدركت "**فيكتوريا**" حين رأت قسمات وجهها وشعرها الناعم أنها لابد أن تكون من أهل الشرق، سألتها:

– هل هذا مقر الدكتور "**راتبون**" ؟

– نعم.. هنا معهد "**غصن الزيتون**" .. هل تريدين الانضمام إليه؟

– ربما فيما بعد. أما الآن فإنني أريد مقابلة الدكتور "**راتبون**" . فابتسمت الفتاة ابتسامة غامضة وأجابت:

– إننا لا نستطيع إزعاجه. ولكني على استعداد لأن أقدم إليك كافة الإرشادات.. ها هي ذي استمارة العضوية فاملئيها ووقعي عليها بإمضائك، أما رسم الاشتراك فهو ديناران.

فقالت لها "**فيكتوريا**" إنها ستفكر في الموضوع. وإنها تريد أولاً أن تقابل الدكتور "**راتبون**" أو سكرتيره.. وأجابتها الفتاة:

– ولكن ذلك مستحيل الآن. قلت لك إن...

– وما وجه الاستحالة؟ هل السكرتير غير موجود؟ وكذلك الدكتور "**راتبون**" ؟

– الدكتور موجود في الطابق الأول ولكنه أمر بالا نزعجه..

– إنني قادمة للتو من "**إنجلترا**" .. ومعي رسالة للدكتور "**راتبون**" على جانب عظيم من الأهمية.. ولذلك يجب أن أقابله شخصيا.. وفورا.. يؤسفني أن أضايقك ولكن لابد مما ليس منه بد.. ولاحظت الفتاة إصرارها فقالت:

– حسنًا.. اتبعيني.. وقادتها إلى الطابق الأول، حيث وجدت الدكتور "**راتبون**" .. كان رجلا قصير القامة، أشيب الشعر يناهز الستين من عمره، وقد نهض لاستقبال الزائرة التي قيل له إنها قادمة من "**إنجلترا**" .. بسط لها يديه مرحبًا، وقال وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة:

– هل أنت قادمة من "**إنجلترا**" ؟ لا شك في أن هذه أول رحلة إلى بلاد الشرق .

– إنها كذلك..

– يهمني أن أعرف انطباعاتك عن هذه البلاد. ولكن حدثيني أولاً.. ألم نتقابل قبل الآن؟

– لا.. ولكني صديقة لـ"**إدوارد**"..

– صديقة لـ"**إدوارد**"؟ وهل يعلم أنك في "**بغداد**"؟

– لا..

– إذن فستكون مفاجأة له عندما يحضر..

– عندما يحضر؟

– نعم. إنه الآن في "**البصرة**" للتفاهم مع رجال الجمارك بشأن شحنة كتب وردت إلينا من "**إنجلترا**"..

– ومتى سيعود إلى "**بغداد**"؟

– لا أعلم. من المحقق أنه لن يعود قبل الفراغ من مهمته. اذكري لي عنوانك وسوف أنبئه حالما يحضر. وتذكرت أزمتها المالية وحرج مركزها.. وقالت بعد تردد:

– هل يمكن أن أجد لي عملاً عندكم هنا؟

دون شك.. إننا في حاجة إلى جميع ذوي النيات الطيبة، ونرحب بالإنجليزيات بصفة خاصة.. يوجد نحو ثلاثين شاباً وفتاة يعملون معنا الآن، ولكني واثق بأنك ستفيديننا كثيراً..

– الواقع أنني أطلب عملاً بأجر.. فقال الدكتور "**راتبون**" وقد فترت حماسته فجأة:

– هذا أمر آخر، إن العمل بأجر يبدو عسيرا في الوقت الحاضر.. خاصة وأن ميزانيتنا لا تكاد تغطي مرتبات موظفينا القلائل.

– من سوء الحظ أن مركزي المالي لا يسمح لي بالعمل حبا في العمل.. واحمر وجهها وهي تستطرد قائلة:

– إنني أجيد الاختزال والعمل على الآلة الكاتبة..

–أنا واثق بذلك أيتها البنية العزيزة.. ولكن العقبة في الميزانية.. على أنني أرجو إذا استطعت العثور على عمل آخر أن تكرسي بعض أوقات فراغك للتعاون معنا.. إننا نؤدي هنا عملاً جليلا يهدف إلى القضاء على الحروب، وإزالة أسباب البغض والجفاء التي تمزق العالم، وذلك بالتقريب بين الشعوب عن طريق الفن والثقافة والشعر. واشتدت حماسة الدكتور "**راتبون**" ومضى يقول:

لقد ترجمت مسرحية "**شكسبير**" "حلم ليلة صيف" إلى أربعين لغة.. فأتيحت بذلك لشباب أربعين دولة فرصة الاستمتاع بهذه التحفة الأدبية الرائعة.. إن جل اعتمادنا على الشباب. فهم أقدر على الفهم والتفاهم.. إليك مثلاً الفتاة التي استقبلتك في المكتبة. إنها سورية من "**دمشق**" وتدعى "**كاترين**" وهي في مثل سنك تقريباً، وقد لا تكون بينها وبينك أية صفة مشتركة، ولكنكما مع ذلك قد تقابلتما هنا.... إن "**غصن الزيتون**" مباح للجميع.. وبين أعضائه شباب من "**روسيا**" و"**العراق**" و"**تركيا**" و"**مصر**" و"**أرمينيا**" و"**إيران**".. جميعهم يقرءون نفس الكتب.. ويتبادلون وجهات النظر ويكتشفون حقائق الحياة.

*****

وكان لـ"**فيكتوريا**" رأي آخر في فتيات "**غصن الزيتون**" اللائي يتهالكن على "**إدوارد**". أما "**كاترين**" بالذات فإنها لم تكن تتمنى أن تنشأ بينهما أية صداقة.. ومضى الدكتور "**راتبون**" في حديثه.. قال:

– إن "**إدوارد**" شاب رائع. وله قدرة عجيبة على التفاهم مع الفتيات على الرغم من أنهن جميعا يعبدنه. وابتسم الدكتور واستطرد قائلا:

– إنما أردت بهذا كله أن أقول لك إننا سنكون سعداء إذا عملت معنا. قال ذلك وبسط لها يده فأدركت أن المقابلة انتهت. وشدت على يده وانصرفت. ومرت في طريقها، بـ"**كاترين**"، وكانت هذه تتحدث مع فتاة أخرى خُيِّل إلى "**فيكتوريا**" أنها رأتها من قبل في مكان ما. وكان حديثهما بلغة غريبة لم تفهم منها "**فيكتوريا**" كلمة واحدة، وأكثر من ذلك أنهما كفتا عن الكلام حين أبصرتاها.

وسارت "**فيكتوريا**" في طريقها إلى الفندق، وحاولت أن تتناسى دقة مركزها كفتاة وحيدة وبلا نقود في بلد غريب، بالتفكير في أمر الدكتور "**راتبون**" ومعهد "**غصن الزيتون**". لقد قال لها "**إدوارد**" في "**لندن**" إنه في عمل يثير الريبة.. فهل كان يعني بذلك الدكتور "**راتبون**" أم "**غصن الزيتون**"؟

كان رأيها الشخصي في الدكتور "**راتبون**" أنه عالم مجنون يعيش في حلم مستحيل التحقيق، ولكنه لا يمكن أن يكون محتالاً أو.. صحيح أنها لاحظت أن موقفه مثلا قد تغير حين قالت له إنها تريد عملاً بأجر.. ولكن ذلك دليل على أنه رجل منطقي، متزن التفكير. إن هناك أشخاصا يضايقهم أن يدفعوا أجرا للذين يعملون معهم، وقد قابلت "**فيكتوريا**" كثيرين من هذا الطراز.. ومنهم على سبيل المثال السيد "**جرينهولز**".

الفصل الثاني عشر

عادت "**فيكتوريا**" إلى الفندق متعبة متورمة القدمين، ورآها "**ماركوس**" من بعيد، فدعاها إلى الجلوس وتناول قدح من الشراب، وقدمها إلى رجل كان يجالسه يدل مظهره على عدم عنايته بهندامه.. قال:

– دعيني أقدمك إلى السيد "**داكن**". هذه هي آنسة "**جونز**" التي جاءت أخيراً من "**إنجلترا**" يا سيد "**داكن**" ماذا تتناولين يا آنسة "**جونز**"؟ عصيرا أم شرابا؟ فطلبت قدحا من عصير التفاح. بينما قنع "**داكن**" بقدح من عصير الليمون. ولمح "**ماركوس**" السيدة "**كارديو ترينش**"، فدعاها إلى الانضمام إليهم. وقال يحدثها:

– لا شك في أنك تعرفين السيد "**داكن**". هل تسمحين لي بأن أقدم إليك قدحا من الشراب؟ فأجابت السيدة:

– لا بأس بقدح من الليمون بالصودا.. وحيت "**داكن**" بإحناء رأسها. وقالت تحدث "**فيكتوريا**":

– يُخيَّل إليَّ أنك متعبة.. هل ذهبت إلى مكان ما؟

– بل قمت بنزهة في السوق.. إن فيها أشياء كثيرة تستحق أن يراها الأجانب.. وجاءهم النادل بأقداح الشراب وما هي إلا لحظة حتى قدم زائر جديد. قدمه "**ماركوس**" إلى "**فيكتوريا**" باسم الكابتن "**كروسبي**".. وسألها هذا الأخير:

– هل قدمت منذ مدة طويلة؟

– منذ أمس.

– هذا ما ظننته. فإنني لم أرك هنا قبل اليوم. فقال "**ماركوس**" وهو يبتسم:

– إنها فاتنة. أليس كذلك؟ إنني أفكر في إقامة مأدبة عشاء تكريما لها. وقالت السيدة "**ترينش**" تحدث "**كروسبي**":

– كنت أظن أنك في "**البصرة**".

– إنني عدت منها أمس. ورفع بصره إلى إحدى شرفات الفندق وقال:

– من هذا السيد الأنيق الذي يجلس في الشرفة، ويضع على رأسه قبعة عريضة كقبعات أهل "**المكسيك**". فأجاب "**ماركوس**":

– إنه السيد "**روبرت كرفتون لي**".. إنه رجل ظريف، ورحالة مشهور. يقضي جل وقته في ارتياد الصحاري على ظهور الجمال..

– لقد سمعت عنه وقرأت أحد كتبه. وقالت "**فيكتوريا**":

– إنني وصلت معه على نفس الطائرة. ثم استطردت قائلة بقلة اكتراث:

– ولكن يُخيَّل إليَّ أن شيئا فيه قد تغير. وشعرت بشيء كثير من الخيلاء؛ لأن "**داكن**" و"**كروسبي**" لم يحولا أنظارهما عنها. وبعد قليل، استأذنت "**فيكتوريا**" في الانصراف، وصعدت إلى غرفتها وهناك تمددت على فراشها وراحت تفكر.. إن ثروتها لم تعد تتجاوز ثلاثة جنيهات. وهي الآن تدين للفندق بأكثر من هذا المبلغ. وإذا لم يكن "**ماركوس**" قد طالبها بشيء حتى الآن، فمن المؤكد أنه سيقدم إليها فاتورة الحساب بعد يومين أو ثلاثة.. أو في نهاية الأسبوع على الأكثر، أفلا يحسن بها أن تبادر من الآن إلى البحث عن فندق رخيص؟

إن كل آمالها تتركز الآن في "**إدوارد**". ولكن متى سيعود "**إدوارد**" من "**البصرة**"؟ وهل سيذكرها متى عاد؟

ثم من يكون "**إدوارد**" هذا؟ إنها لا تعرف حتى لقبه.. لقد ارتكبت خطأ جسيما حين قررت القدوم إلى "**بغداد**" . وها هي ذي الآن بلا مال أو عمل.. وليس هناك من تستطيع الالتجاء إليه في طلب النصيحة..

إن "**ماركوس**" .. رجل طيب ولكنه لا يصغي إلى محدثه. والسيدة "**ترينش**" سيدة محترمة ولكن يبدو من سلوكها أنها لا تثق بأحد. أما الدكتور "**راتبون**" فإنه لا يهتم بأمرها على الإطلاق.

وكانت لا تزال تفكر في أمرها حين غلبها النعاس فاستغرقت في النوم. وفي هذه الأثناء، كان "**كروسبي**" و"**داكن**" يتجاذبان أطراف الحديث بعد أن انصرف "**ماركوس**" والسيدة "**ترينش**" . قال الأول في همس:

– ما رأيك في الفتاة؟

– يبدو أنها ابنة أخ "**بونسفوت جونز**" عالم الآثار. ولكنها قدمت على نفس الطائرة مع "**كرفتون لي**"؟

– لهذا يجب أن نتحرى عنها.. قال ذلك ثم نظر إلى ساعته، واستطرد قائلا:

– سأذهب لمقابلة "**كرفتون لي**" .. وفتح باب غرفة السيد "**روبرت**" قبل أن يقرعه "**داكن**"، ولم يكن في الغرفة سوى مصباح صغير على مقربة من المقعد الذي كان يجلس عليه السيد "**روبرت**" قبل أن ينهض لاستقبال ضيفه.. وضع السيد "**روبرت**" المسدس الذي كان في يده على المائدة. وقال وهو يجلس:

– هل تظن أنه سيأتي يا "**داكن**"؟

– أعتقد ذلك يا سيد "**روبرت**" .. ألم يسبق لك أن قابلته؟

– لا. ولكن سوف يسعدني أن أتعرف بشاب ذكي وشجاع مثله.. هل اتخذت جميع الاحتياطات اللازمة؟

– نعم – إن "**كروسبي**" في الشرفة.. أما أنا فسأكمن في الدهليز لمراقبة السلم.. ومتى جاء "**كارمايكل**" إلى غرفتك فاطرق الباب ثلاث مرات فأنضم إليكما.

– سأفعل ذلك. وغادر "**داكن**" الغرفة في هدوء كما دخلها..

الفصل الثالث عشر

كانت "**فيكتوريا**" قد عقدت عزمها على أن تنام ملء جفنيها، وتنسى همومها جميعا حتى صباح اليوم التالي، ولكنها كانت قد قضت وقتا طويلا في فراشها بعد الظهر، فاستيقظت بعد نحو الساعة، وعبثا حاولت التغلب على الأرق الذي استولى عليها. وأخيرا أضاءت النور، وقررت أن تستأنف قراءة قصة كانت قد بدأتها في الطائرة.

وفرغت من قراءة القصة، وأخذت تشغل نفسها بتجربة جورب النايلون الذي أهدتها إياه السيدة "**كليب**"، ثم شرعت في تدبيج بعض الرسائل لطلب وظيفة. وبعد قليل تثاءبت وأحست بالخمول فأوت إلى فراشها. ولكنها ما كادت تفعل ذلك حتى فتح باب غرفتها فجأة ودخل منه رجل استدار إلى الباب وأغلقه بالمفتاح.. وهتف باسمها بصوت مرتجف:

– أخفيني بحق السماء.. أسرعي.

وكانت "**فيكتوريا**" دائما سريعة الخاطر.. وبنظرة واحدة سجل ذهنها الحقائق التالية:

إن الرجل يلهث.. إن صوته لا يكاد يسمع.. إن يده التي تضم الحقيبة فوق صدره ترتجف.. إن الغرفة لا يكاد يكون فيها مخبأ لإخفائه.. وانصرف تفكيرها على الفور إلى الفراش. كان فسيحا. قالت تحدث الرجل:

– أسرع. ورفعت الأغطية، وأرقدت الرجل على الفراش بجوارها، وغطته.. ووضعت وسادتين فوقه. وجلست على حافة الفراش.. وفي نفس اللحظة سمعت طرقا على الباب فهتفت قائلة:

– من الطارق؟ وجاء الجواب:

– الشرطة. افتحي الباب.. فضمت غلالتها حول جسدها واتجهت نحو الباب..

ولكنها لمحت شملة زائرها الغامض ملقاة على الأرض، فتناولتها وأخفتها في أحد الأدراج.. ثم فتحت الباب ووجدت نفسها أمام شاب أسود الشعر، يتبعه رجل في

ثياب الشرطة. سألت بصوت تعمدت أن يرتجف:

– ماذا حدث؟ فأجاب الشاب بإنجليزية مقبولة:

– يؤسفنا يا آنسة أننا أزعجناك في مثل هذه الساعة، ولكننا نطارد مجرما هاربا لجأ إلى هذا الفندق، ونحن بسبيل البحث في جميع الغرف.. إنه مجرم خطير إلى أقصى حد..

– يا إلهي! وفتحت الباب على مصراعيه وسمحت لرجلي الشرطة بالدخول.. ولكن عملية التفتيش لم تستغرق سوى لحظة. ثم قال الشاب:

– إنه ليس هنا..

– هل أنت واثق بذلك؟ الواقع، إنني تعودت أن أغلق الباب بالمفتاح قبل أن أنام ولكن.

– اطمئني يا آنسة. في استطاعتك أن تعودي إلى فراشك..

– يجب أن أغلق الباب خلفكما بالمفتاح. ذلك أضمن.

– ذلك أضمن فعلا. شكرا لك يا آنسة.. أرجو لك ليلة سعيدة..

وانصرف الرجلان، وسمعتهما "**فيكتوريا**" يطرقان باب الغرفة المقابلة.. ثم سمعت صوت السيدة "**ترينش**" وهي تصيح مستنكرة. واستمر الشرطيان يطرقان الأبواب حتى ابتعدا عن غرفتها.. واقتربت "**فيكتوريا**" من الفراش، وهي تلوم نفسها لإقدامها على مساعدة رجل غريب لمجرد أنه يتكلم لغتها.. ودون أن تفكر في أن هذا الرجل قد يكون مجرما خطرا كما قال الشرطي.. ووقفت أمام الفراش وقالت كلمة واحدة:

– انهض. ولكن الرجل لم يتحرك فقالت بصوت خافت:

– لقد رحلا. في استطاعتك أن تنهض. ولما لم ترَ حركة، أو تسمع جوابًا، رفعت الأغطية بحدة ورأت الرجل جامدا في مكانه مغمض العينين ووجهه في لون الرماد. ولاحظت في ذات الوقت وجود بقعة كبيرة من الدم على الأغطية. فاستولى عليها الذعر وغمغمت:

– كلا، كلا. كل شيء إلا هذا!! وفي هذه اللحظة فتح الرجل الجريح عينيه

ونظر إليها وتحركت شفتاه، ولكن صوته كان خافتًا جدًّا فلم تسمعه، وانحنت فوقه وسألت:

– ماذا قلت؟ وتحركت شفتاه مرة أخرى. وخُيِّل إلى "**فيكتوريا**" أنها سمعت كلمتين لم تفهم لهما معنى:

– "**لوسيفر**".. "**البصرة**". وتحركت شفتاه مرة أخرى بعد قليل.. ولكن "**فيكتوريا**" لم تتبين جيدا ما قال. ثم اهتزت أهداب الرجل بسرعة، وجمدت عيناه في محجريهما ولم تبديا حراكا بعد ذلك.. وتسمرت "**فيكتوريا**" في مكانها وخفق قلبها بشدة.. لقد أحست بالرثاء لهذا الرجل الذي أسلم الروح أمامها في التو واللحظة. ولكن ماذا ينبغي عليها أن تفعل الآن؟ لم تكن لديها أية فكرة!! هل تستغيث؟ ولكن بمن؟ وماذا ستقول لرجال الشرطة إذا طلبوا إليها إيضاحا؟

وسمعت جلبة فنظرت خلفها، ورأت مفتاح الباب يسقط على الأرض.. وفي نفس اللحظة فتح الباب ودخل السيد "**داكن**" في هدوء.. قال بصوت خافت:

– أحسنت يا بنية!! إنك تفكرين بسرعة وتعملين بسرعة. كيف حاله؟

– أظن أنه.. مات.. وخُيِّل إليها أنها رأت عيني الرجل تتالقان غضبا.. ولكنه سرعان ما تمالك نفسه. ولمحت "**فيكتوريا**" في وجهه سمات الرجل الحازم النشيط، متوقد الذكاء، إنه رجل يختلف تماما عما عرفته عن "**داكن**"، وانحنى هذا الأخير فوق الفراش، وكشف عن صدر الميت، وغمغم قائلا:

– طعنة خنجر في القلب تماما.. ثم أردف في أسى:

– كان رجلاً باسلا. فقالت "**فيكتوريا**":

– منذ لحظة كان هنا شرطيان قالا إنه مجرم خطير، فهل كان مجرما حقًّا؟

– كلا بغير شك.

– وهما؟ هل كانا من الشرطة؟

– لا أعلم.. ربما.. على أن ذلك لا يغير من الأمر شيئا. ثم قال بعد قليل:

– هل قال شيئا قبل أن يموت؟

– نعم.

– ماذا قال؟

– قال "**لوسيفر**" ثم "**البصرة**".. ثم نطق باسم يُخيَّل إليَّ أنه فرنسي.. ولكني لم أسمعه جيدا..

– ماذا كان ذلك الاسم؟

– "**لافارج**" فيما أظن..

– "**لافارج**"؟!

– ولكن ما معنى كل هذا؟ وماذا يجب أن أفعل الآن؟ فأجاب "**داكن**":

– سنفعل كل ما في وسعنا لإبعادك عن هذا الموضوع. أما معنى هذه الحوادث فذلك ما سوف أصارحك به عندما نجلس معًا.. المهم الآن هو أن نتصل بـ"**ماركوس**" ونستطلع رأيه.. فهو صاحب الفندق، وهو إنسان متزن التفكير على الرغم من ثرثرته وهذره.. الساعة الآن الواحدة والنصف وأعتقد أنه لم ينم بعد.. وانصرف "**داكن**"، وتهالكت "**فيكتوريا**" في أحد المقاعد وهي تشعر كأنها في حلم.. وعندما عاد "**داكن**" ومعه "**ماركوس**".. لم يكن هذا الأخير مرحا كعادته. ولم تكن على شفتيه ابتسامته الخالدة المألوفة. قال "**داكن**":

– يجب أن تتعاون معنا يا "**ماركوس**". لقد اقتحم هذا الشخص هذه الغرفة وهو في الرمق الأخير، وكان البوليس يطارده فأخفته الآنسة "**جونز**" بدافع الإشفاق عليه. ولكنه مات.. إنها أخطأت بغير شك.. ولكن ليس من الإنصاف أن نلوم فتاة تصرفت بدافع مشاعرها النبيلة. فقال "**ماركوس**":

– هل تريد أن أوضح الأمر لرجال الشرطة؟ إنني لا أحبهم.. ولا أود التعامل معهم.. فقال "**داكن**":

– إن كل ما نريده.. هو نقل الجثة من هنا دون أن نثير انتباه أحد..

– إنني أرحب بذلك من كل قلبي.. فلست أحب أن يقال إن جثة وجدت في فندقي.. ولكن كيف؟

– أعتقد أن ذلك ميسور.. هل يوجد في أسرتك طبيب؟

- نعم.. "**بول**".. زوج أختي. إنه شاب ظريف ولكني، لا أريد أن أجلب له المتاعب..

- لن تكون هناك متاعب.. ستنقل هذه الجثة أولاً إلى غرفتي .. وبهذا تنتهي صلة الآنسة "**جونز**" بالموضوع، وبعد قليل سيأتي إلى الفندق رجل ثمل يطلب مقابلتي ويصعد السلم وهو يترنح. ولكنه لا يكاد يصل إلى غرفتي حتى يغمى عليه فأتصل بك وأطلب طبيبا فيحضر زوج أختك، ويستدعي سيارة الإسعاف ويرافق صديقي السكير في السيارة إلى المستشفى، ولكن صديقي يموت في الطريق؛ لأنه كان مصابا بطعنة في قلبه قبل أن يصل إلى الفندق.

- ويترك زوج أختي الجثة في المستشفى، وصباح غد يغادر السكير المزعوم الفندق في هدوء دون أن يثير ريبة أحد. أليست هذه هي الخطة؟

- بلى تماما.

- والنتيجة.. أن الجثة لا توجد في فندقي، وأن الآنسة "**جونز**" لا تواجه متاعب من أي نوع.

- نعم، ولكن عمال الفندق يتجولون في الأروقة إلى ساعة متأخرة من الليل. فعليك أن تشغلهم بشيء ما ريثما أنقل الجثة إلى غرفتي.

- حسنًا.. سأدعوهم للاجتماع بي في مكتبي لكي أبدي لهم بعض الملاحظات المهمة. وانصرف "**ماركوس**"، وقال "**داكن**" يحدث "**فيكتوريا**":

- هل يمكنك مساعدتي في نقل الجثة؟ فأومأت برأسها علامة الإيجاب.. وبعد بضع دقائق كانت الجثة مسجاة في فراش "**داكن**". وقال "**داكن**" يحدث "**فيكتوريا**":

- هل لديك مقص؟ حسنا. عودي إلى غرفتك وقصي من الأغطية المنطقة الملوثة بالدم وسألحق بك بعد ساعة.

- وهل ستوضح لي معنى كل هذا؟ فنظر إليها طويلاً.. ولكنه لم يجب عن سؤالها.

الفصل الرابع عشر

أطفأت "**فيكتوريا**" النور في غرفتها وأرهفت أذنيها. وسمعت مناقشة اشترك فيها رجل ثمل لا يبدو أنه يهتم براحة الآخرين، ثم سمعت رنين أجراس ووقع خطى كثيرة في الدهاليز. وبعد فترة من الوقت ساد صمت عميق لم يشبه سوى نغمات موسيقى عربية منبعثة من غرفة بعيدة.

وخُيِّل إلى "**فيكتوريا**" أنها انتظرت ساعات طويلة قبل أن يفتح باب غرفتها أخيرا في هدوء. فاعتدلت في فراشها، وأضاءت المصباح خافت الضوء. بينما جلس "**داكن**" على حافة الفراش وراح ينظر إليها بإمعان كما ينظر الطبيب إلى المريض قبل أن يصارحه بنتيجة الفحص. وتكلمت "**فيكتوريا**" أولاً، وقالت:

– ألا توضح لي معنى كل هذا؟ فأجاب "**داكن**":

– سأوضح لك كل شي إذا تحدثنا عنك أولاً، وإذا ذكرت لي ماذا تفعلين هنا؟ وماذا جاء بك إلى "**بغداد**"؟

وبدأت "**فيكتوريا**" تتكلم، ويبدو أنها تأثرت بشخصية "**داكن**" القوية فلم تحاول الكذب. وبعبارات واضحة روت قصتها دون أن تخفي شيئًا، فذكرت كيف قابلت "**إدوارد**"، وكيف قررت القدوم إلى "**بغداد**" مهما يكلفها الأمر، والمعجزة التي حدثت بظهور السيدة "**كليب**"، والمأزق المالي الذي تعانيه في الوقت الحاضر. فقال "**داكن**":

– فهمت! ثم استطرد قائلا بعد صمت طويل:

– كنت أود أن أجنبك التورط في هذه القضية، ولكن ذلك كان مستحيلا، لأنك تورطت فعلاً، وغرقت في القضية إلى أذنيك، وما دام الأمر كذلك. فلماذا لا تعملين لحسابي؟! احمر وجهها فرحا وهتفت:

– هل تعرض عليَّ عملا؟

– نعم. ولكنه عمل يختلف عن جميع الأعمال التي زاولتها.. عمل حافل بالأخطار.

– ولكنه شريف.. أليس كذلك؟ صحيح، إنني ألجأ إلى الكذب في بعض الأحيان. ولكني لا أقدم أبدا على عمل يحرمه القانون. فابتسم "**داكن**" وأجاب:

– الواقع، إنني لم أفكر فيك إلا لبراعتك في الكذب. إن العمل الذي حدثتك عنه شريف فاطمئني.. إنك ستعملين في جانب النظام والقانون.. وسأوضح لك الموقف بالقدر الذي يساعدك على فهم مهمتك ومعرفة الأخطار التي قد تتعرضين لها، إنك لا تفتقرين إلى حسن الإدراك، ولكن من المحقق أنك لم تتوفري في يوم ما على الإلمام بمشكلات السياسة الدولية. فأطرقت "**فيكتوريا**" برأسها علامة الإيجاب وقالت:

– إن كل ما أعلمه أن العالم يعيش فوق بركان، وأن الحرب قد تقع بين يوم وآخر.

– ذلك ما يقال فعلا.. هل تعلمين لماذا؟

– بسبب اختلاف المذاهب السياسية.. في "**أمريكا**" و"**روسيا**".

– أرى أنك قد قرأت بعض الصحف، واستمعت إلى بعض الإذاعات.. إن ما ذكرته هو الحقيقة على وجه التقريب. فهناك عقيدتان سياسيتان. تمثل "**الولايات المتحدة الأمريكية**" إحداهما، وتمثل "**روسيا**" الأخرى. ولا شك في أن أمل العالم في المستقبل إنما يتوقف على السلام، وأن السلام لن يتوطد، إلا إذا اعترفت كل من هاتين الدولتين بحق الأخرى في اعتناق المذهب السياسي الذي يوائمها وتطبقه في مناطق نفوذها فحسب، أو إذا اتفقتا على التعايش والتعاون، ولكن من سوء الحظ، أن ما يحدث هو عكس ذلك تماما..

إن الهوة بين المعسكرين تزداد عمقا يوما بعد يوم، حتى انتهى الأمر ببعض الناس إلى التساؤل. ألا يمكن أن يكون تعميق الخلافات بين هذين المعسكرين من عمل قوة ثالثة لا نعرفها في الوقت الحاضر؟

ذلك لأنه كلما حدث تقارب بين المعسكرين الرئيسيين، وكلما لاحت تباشير اتفاق بينهما، وقع حادث أفسد كل شيء. وأثار شكوك كل من المعسكرين ومخاوفه من المعسكر الآخر.

وهذه الأحداث التي تفرق بين المعسكرين ليست وليدة المصادفات.. إنها

مقصودة، ومدبرة.

- مدبرة؟! لماذا؟ وكيف؟

- كيف؟ إن الوسائل كثيرة.. وأهمها المال.. إن المال وراء كل ما يحدث في العالم اليوم، ومصدره في القضية-التي نحن بصددها - لا يزال موضع شك. إننا نرى بين وقت وآخر إضرابات واضطرابات عمالية تحدث فجأة هنا وهناك، فتزعزع مراكز حكومات تعمل في الواقع لصالح شعوبها. إن العمال يقدمون على الإضراب بسلامة نية.. ظنا منهم أنهم يدافعون عن مصالحهم وحقوقهم... ولكن من أين يأتي المال الذي يمول الإضرابات والحركات العمالية؟ إن أموالا ضخمة تختفي من الأسواق ولا أحد يعرف مصيرها. وكميات هائلة من الألماس والأحجار الكريمة تشترى من أسواق متعددة، ثم تختفي ولا أحد يعلم أين ذهبت.

- ولكن..

- إن ما أريدك أن تفهميه يا "**فيكتوريا**" هو أن هناك جماعة لا نعرف نياتها على وجه التحديد، ولها صالح في تعميق الخلافات بين المعسكرين الكبيرين ولدينا من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأن لهذه الجماعة وكلاء في جميع بلاد العالم، وأن بعض هؤلاء الوكلاء يشغلون مراكز خطيرة.. فهم طابور خامس لا يعمل على المستوى القومي فحسب، وإنما يعمل كذلك على المستوى العالمي.

- ولكن من هؤلاء الوكلاء؟

- نحن نظن أنهم أناس ليست لهم جنسية محددة. يخشون أن يعم السلام ويسود الرخاء. ويعتقدون أنهم الفئة المختارة لإخضاع هذا العالم المنحل لإرادتهم وفرض سلطانهم ونظامهم عليه قوة وقهرا. هذه الجماعة التي لا أستطيع تعريفها بطريقة أدق، تباشر نشاطها من خلال مراكز متعددة أحدها في "**الأرجنتين**" والآخر في "**كندا**".. والثالث - وربما أكثر - في "**الولايات المتحدة الأمريكية**"، وقد لوحظ خلال العامين الأخيرين أن ثمانية وعشرين من كبار العلماء الذين ينتمون إلى جنسيات مختلفة اختفوا تماما كما لو كانت الأرض قد انشقت وابتلعتهم. لا أحد يعلم أين ذهبوا. أو ماذا كان مصيرهم وقد حدث مثل ذلك

لكثيرين من الطيارين والمهندسين والفنيين. كذلك لوحظ أنهم جميعا من الشبان الطموحين، الذين ليست لهم روابط عائلية فأين ذهبوا؟

لا أحد يعلم .. ولكن بدأت تتكون لدينا فكرة عما في استطاعتهم أن يفعلوا. وكانت "**فيكتوريا**" تصغي في اهتمام وشغف. فمضى "**داكن**" في حديثه وقال:

– في هذا العصر الذي نعيش فيه. يصح أن يقال إنه لا يوجد بلد يمكن أن تقام فيه مصانع ضخمة تنتج في سرية تامة.. ومع ذلك فتوجد مناطق نائية بعيدة عن العمران وخطوط المواصلات. تحيط بها الجبال والصحاري.. وتسكنها قبائل تبغض الأجانب والدخلاء ولم يجرؤ على ارتيادها سوى عدد قليل جداً من المغامرين. في مثل هذه المناطق يمكن أن تحدث أمور لا يعرف عنها العالم الخارجي شيئا.

وهناك منطقة بعينها ، يصل إليها الإنسان عن طريق "**الصين**" ، أو باجتياز جبال "**الهيمالايا**" في رحلة شاقة طويلة، وعلى الرغم من ذلك فإنهم أرسلوا إليها الآلات والمواد والموظفين من شتى أنحاء العالم.

رجل فذ واحد ارتاب في الأمر.. رجل وُلد في "**قشجار**" وأجاد التحدث بلغات الشرق ولهجاته، وله أصدقاء واتصالات في كل مكان.. هذا الرجل وقع على الأثر وتتبعه، ولما عاد إلى العالم المتحضر.. قدم تقريرا لم يصدقه رؤساؤه؛ لفرط غرابته فلم يسعه في آخر الأمر إلا الاعتراف بأنه ربما كان محموماً يهذي أو كان يحلم.

شخصان فقط صدقا ما جاء في التقرير. كنت أنا أحدهما. فلقد حدثت المستحيلات أمام عيني أكثر من مرة.. مما جعلني أنبذ التشاؤم.

أما الشخص الآخر فكان السيد "**روبرت كرفتون لي**" الرحالة المشهور. الذي زار بنفسه تلك المنطقة، وقال إنها يمكن أن تنطوي على مفاجآت مذهلة. وتشجع "**كارمايكل**" – وهذا هو اسم الرجل الفذ الذي ذكرته – وقرر أن يذهب إلى المنطقة لتقصي الحقيقة. كانت رحلة محفوفة بالأخطار، ولكنه كان كفئا لها.. وبدأ "**كارمايكل**" الرحلة منذ تسعة أشهر، ولكن لم تصلنا أنباؤه إلا منذ بضعة أسابيع.. فعلمنا أنه تحقق من صدق روايته، وأنه في طريقه إلينا ومعه الأدلة. ومزيد من المعلومات. غير أن الأعداء اكتشفوا أمره.. الأعداء الذين يهمهم إلى

أقصى حد ألا يعود بالأدلة. فوضعوا الرقابة على الحدود. وقتلوا بعض الأبرياء لمجرد الشبهة في أن يكون أحدهم "**كارمايكل**" وعلى الرغم من ذلك استطاع "**كارمايكل**" الإفلات. وظل سليما معافى حتى مساء اليوم.

– إذن فالرجل الذي قتل الليلة. كان هو؟

– والأدلة التي جاء بها.. هل سلبوه إياها؟ فارتسمت على شفتي "**داكن**" ابتسامة حائلة وأجاب:

– إن من يعرف "**كارمايكل**" كما أعرفه.. يرتاب في ذلك، مما لا شك فيه أنهم لم يسلبوه الأدلة. كل ما في الأمر أنه مات دون أن ينقلها إلينا أو يرشدنا إلى مكانها، لقد حاول ذلك وأعتقد أن كلمات: «"**لوسيفر**".. "**البصرة**" "**لافارج**"» هي مفتاح السر..

لقد مر بـ"**البصرة**" وذهب إلى القنصلية ليقدم تقريره ولكنه كاد يقتل في قاعة الانتظار.. وأنا أعتقد أنه ترك الأدلة التي ننشدها في مكان ما في "**البصرة**"، وأريدك أن تذهبي إلى هناك للبحث عنها.

– أنا؟!

– نعم.. أنت، إنك تفتقرين إلى الخبرة، ولا تعرفين الشيء الذي تبحثين عنه.. ولكنك سمعت آخر كلمات نطق بها "**كارمايكل**".. فإذا ذهبت إلى "**البصرة**" فإن هذه الكلمات قد توحي إليك بشيء.. من يعلم؟ «إن الحظ يخدم الغشيم» كما يقول المثل.

– كم يسعدني أن أذهب إلى "**البصرة**"! قالت ذلك بحماسة فلم يتمالك "**داكن**" نفسه من الابتسام. قال:

– لأن صديقك هناك!! سبب معقول. لن يرتاب فيه أحد، ولن نجد أفضل منه. اذهبي إذن إلى "**البصرة**" وافتحي عينيك وأذنيك. وانظري حولك جيداً.. أنا لا أستطيع أن أصدر إليك أية تعليمات.. وأعتقد أن ذلك أفضل.. فأنت لا تنقصك سعة الخيال، ولا سرعة الخاطر. ابحثي عن معنى كلمتي "**لوسيفر**" و"**لافارج**" وأنا أعتقد مثلك أن "**لافارج**" هو اسم أحد الأشخاص..

– ولكن كيف أذهب إلى "**البصرة**"؟ ومن أين لي النقود؟

فأخرج "**داكن**" حافظة نقوده، وقدم للفتاة حزمة من الأوراق المالية وهو يقول:

– أما النقود فها هي ذي. وأما الرحلة فعليك أن تقابلي غدا السيدة "**كارديو ترينش**" تلك العجوز الثرثارة، قولي لها في معرض الحديث إنك تريدين السفر إلى "**البصرة**" للحاق ببعثة عمك الأستاذ "**بونسفوت جونز**" المزعومة.. واطلبي إليها أن تدلك على فندق هناك. وستجيبك بأن القنصلية سوف يسرها أن تستضيفك، وأنها ستبرق إلى السيدة "**كلايتون**" زوجة القنصل لتستقبلك.. وأعتقد أنك ستقابلين "**إدوارد**" هناك. إن جميع الإنجليز الذين يمرون بـ"**البصرة**" ينزلون في ضيافة آل "**كلايتون**" ونصيحتي الأخيرة إليك هي أنك إذا وقعت في مأزق وطلب إليك الإفضاء بما تعلمين ولحساب من تعملين.. فلا تتصنعي الشجاعة والبطولة بل اعترفي بكل شيء..

– يسرني أن أسمع ذلك.. ولكني قوية الإرادة، ومهما عذبوني فلن أنطق بكلمة.

– لن يعذبك أحد، فالتعذيب وسيلة عتيقة. إن حقنة صغيرة تكفي لأن تحل عقدة لسانك.. وتجعلك تجيبين بصدق وإخلاص عن كل ما يلقى عليك من أسئلة، ولذلك لا ينبغي الاحتفاظ بأسرارك إذا كان الثمن باهظا.. وهم فضلا عن ذلك يعرفون كل شيء. ولن يجدوا في اعترافك أية معلومات جديدة. إن ما حدث الليلة لا يدع لديهم مجالاً للشك في الدور الذي أقوم به.. أو الدور الذي يقوم به السيد "**روبرت**".

– و"**إدوارد**" هل أطلعه على مجريات الأمور؟

– ذلك أمر أتركه لك. المفروض من حيث المبدأ ألا يعلم أحد بمهمتك في "**البصرة**".. أما من الناحية العملية. ونهض واقفا دون أن يتم عبارته، ثم استطرد قائلاً:

– إذا أنت صارحته بكل شيء.. فإنه سيتعرض لنفس الأخطار مثلك، ولكني أعلم أنه كان طياراً، وأنه أبلى بلاء حسناً في الحرب. ولذلك أعتقد أن الأخطار لن

تخيفه. هل قلت لي إن معهد "**غصن الزيتون**" ـ الذي يعمل فيه "**إدوارد** ـ يثير ريبته؟ إذا صح ذلك فسيكون أمرا خليقا بالاهتمام.

ـ لماذا؟

ـ لأن ذلك هو انطباعنا نحن أيضا عن هذا المعهد. والآن سأقول لك شيئًا آخر قبل أن أنصرف.. حاولي ألا تتورطي في أكاذيب ضخمة.. وافتحي أذنيك جيدا وإذا سمعت اسم "**هيلين شيل**" فافتحيهما أكثر وأكثر..

ـ "**هيلين شيل**"؟ من هي؟

ـ نحن لا نعرف عنها إلا القدر اليسير. ولكن يهمنا أن نعرف المزيد.

الفصل الخامس عشر

هتفت السيدة "**كارديو ترينش**" قائلة:

ـ فندق المطار؟ كلا.. لا تفكري في ذلك.. يجب أن تقيمي في دار القنصلية. إن "**كلايتون**" وزوجته سيسرهما أن يرياك.. إنني أعرفهما منذ سنوات عديدة، ثم إنهما من أصدقاء الدكتور "**بونسفوت جونز**".. سأبرق إليهما الآن وعليك أن تستقلي قطار المساء. واحمر وجه "**فيكتوريا**".. إن كذبة أسقف "**لانجو**" كانت أفضل من كذبة "**بونسفوت جونز**" الذي يحتمل في أية لحظة أن تجد نفسها معه وجها لوجه. على أن الرحلة كانت بالنسبة إليها شيئا جديدا مثيرا.. وقد وجدت سيارة رسمية في انتظارها في محطة "**البصرة**".. فاستقلتها إلى دار القنصلية.. كانت القنصلية تشغل فيللا كبيرة تحيط بها حديقة مترامية الأطراف، وفي الطابق الأول من الفيللا شرفة فسيحة تدور حول المبنى كله.. وقد خفت السيدة "**كلايتون**" لاستقبال "**فيكتوريا**" بالباب وهتفت وعلى شفتيها ابتسامة ساحرة:

ـ كم يسرنا أن نراك أيتها العزيزة.. إن "**البصرة**" رائعة في هذا الفصل من السنة.. والجميع يعلمون ذلك ويسارعون إلى الإقامة فيها.. وأحيانا كنا نجد صعوبة في توفير مكان لجميع الزائرين.. ولكن من حسن الحظ أن الأمر يختلف

الآن.. فليس لدينا سوى ضيف واحد يعمل مع الدكتور "**راتبون**" وهو شاب ظريف سوف تقابلينه.. وقد فاتتك مقابلة "**ريتشارد بيكر**" الذي رحل أمس، وهو أيضًا شاب مهذب يعد من خيرة علمائنا الشباب.. وفكرت "**فيكتوريا**".. ترى من يكون "**ريتشارد بيكر**" هذا؟ لعل من الخير أنه رحل. فإن أحدا لا يهمها سوى "**إدوارد**".. ومضت السيدة "**كلايتون**" في حديثها قائلة:

– لقد رحل إلى "**الكويت**" لقضاء يومين هناك. ولكن حدثيني أيهما تفضلين أولاً. الاستحمام أم الغداء؟

وفضلت "**فيكتوريا**" الاستحمام أولا. ورافقتها السيدة "**كلايتون**" إلى غرفتها وهناك اغتسلت، وصففت شعرها، وأصلحت زينتها، استعداداً للقاء الرجل الوحيد في حياتها.

كان يهمها أن تنفرد به أولاً ولو فترة قصيرة حتى لا تفتضح صلتها المزعومة بالدكتور "**بونسفوت جونز**". فأطلت من الشرفة وراحت ترقب قدومه.. وبعد قليل رأت رجلاً طويل القامة، نحيفا يجتاز الحديقة، فتوارت عنه في غرفتها، حتى إذا سمعت وقع قدميه على سلم القنصلية عادت إلى مكانها في المقصورة.. وما هي إلا لحظة حتى أبصرت "**إدوارد**" يجتاز الحديقة فهتفت بصوت خافت:

– "**إدوارد**".. "**إدوارد**"..

ورفع الشاب رأسه، ولاحظت أنه أكثر وسامة مما كان عندما قابلته في "**لندن**" فهمست قائلة:

– اقترب. فنظر إليها في دهشة وهتف:

– مستحيل! إنني لا أصدق عيني. فهمست قائلة:

– ابق حيث أنت، وسألحق بك. وهبطت الدرج مسرعة، ووجدت "**إدوارد**" في مكانه وقد تملكته الدهشة. قال حالما رآها:

– إنني لا أصدق عيني.. أهذه أنت حقًّا؟

– هأنذا بلحمي وعظمي..

– ولكن ماذا تفعلين هنا؟ وكيف جئت؟ كنت أظن أنني لن أراك أبداً.

– ذلك ما ظننته أنا أيضاً.

– ولكن ماذا جاء بك إلى هنا؟

– الطائرة؟

– مفهوم.. ولكن أية مصادفة سعيدة ساقتك إلى "**البصرة**"؟ كيف قدمت إلى هنا؟

– بالقطار..

– يالك من خبيثة! أجيبي بحق السماء!

– لقد جئت برفقة سيدة أمريكية كسرت ذراعها.. تدعى السيدة "**كليب**" وقد عرضت عليَّ مرافقتها غداة يوم رحيلك.. وكنت قد ضقت بـ "**لندن**" فقلت لنفسي إنه ليس ثمة ضرر من تغيير الجو.

– إنك رائعة يا "**فيكتوريا**".. وهذه السيدة "**كليب**".. أهي هنا في "**البصرة**"؟

– كلا. إنها رحلت لزيارة ابنتها في "**كركوك**".. كان الاتفاق أن أرافقها خلال الرحلة إلى "**بغداد**" فحسب..

– وماذا تفعلين الآن؟

– لا أزال أحاول الإفادة من تغيير الجو..وكان طبيعيا في سبيل ذلك أن ألجأ إلى الحيلة والخداع. ولهذا حرصت على التحدث إليك قبل أن نلتقي أمام الآخرين.. حتى لا تعلن على الملأ أنني كنت في آخر لقاء بيننا مجرد كاتبة اختزال متعطلة.

– اطمئني.. قولي لي ماذا زعمت عن نفسك فأؤيد مزاعمك؟

– زعمت أنني ابنة أخ الدكتور "**بونسفوت جونز**" عالم الآثار المشهور.. وأنني سألحق به بعد بعض الوقت.

– وبالتأكيد لا صحة لشيء من هذا كله؟ ولكن هبي أنك تقابلت مع الدكتور "**بونسفوت جونز**".

– إنني أستبعد ذلك.. فقد قيل لي إن عالم الآثار إذا ابتدأ في إحدى الحفريات فإنه لا يبرح مكانه ولا يفكر في أي شيء آخر.

– قيل لي أنا أيضا شيء بهذا المعنى.. ولكن هل لـ"**بونسفوت جونز**" ابنة أخ

حقًّا؟

– من أين لي أن أعلم؟

– إذن فأنت لم تنتحلي شخصيةَ فتاة أخرى؟ إن هذا أقل خطورة..

– أليس كذلك؟ ثم إنني أستطيع عند الضرورة أن أزعم أنني ابنة عمه، ولكنني تعودت أن أدعوه "عمي".

– إنك تفكرين في كل شيء يا "**فيكتوريا**".. أنت فتاة مدهشة حقًّا.. ولكن هل فكرت في مزاولة عمل ما؟

– إنني أسعى للحصول على عمل، وقد ذهبت إلى "**غصن الزيتون**" وقابلت الدكتور "**راتبون**" فوافق على أن أعمل في المعهد ولكن مجانا.

– يا له من وغد عجوز!! إنه يريد أن يعمل الناس معه حبًّا في الأدب والفن..

– هل هو محتال؟ فتردد "**إدوارد**" قليلا قبل أن يجيب:

– الواقع، أنني لا أستطيع أن أبدي رأيا، فهو يعمل من أجل فكرة، ويعمل بإخلاص، والمعهد لا يدر عليه ربحا.. ولكني مع ذلك لا أتمالك نفسي من الإحساس بأن في الأمر ما يريب. فقالت "**فيكتوريا**":

– هلم بنا ندخل، ولنتحدث في ذلك فيما بعد.

هتفت السيدة "**كلايتون**" حالما أبصرتهما:

– لم يخطر ببالي قط أن كلا منكما يعرف الآخر!! فضحكت "**فيكتوريا**" وأجابت:

– إننا صديقان قديمان.. ولكني لم أتوقع أن أجده هنا.

وقال "**كلايتون**" – وهو الرجل الطويل النحيف الذي رأته "**فيكتوريا**" من شرفتها – محدثا "**إدوارد**":

– هل فرغت من عملك في الجمرك؟

– كلا.. ولا تزال صناديق الكتب في مكانها.. والإفراج عنها يتطلب إجراءات لا نهاية لها. فابتسم "**كلايتون**" وقال:

– هكذا الحال في الشرق.. لا شيء يتم بسرعة.

– يخيل إليّ في بعض الأحيان أنهم يتعمدون الإبطاء، فالمسؤولون قلما تجدهم في أماكنهم عند الحاجة إليهم.. إن نياتهم تبدو طيبة، والجميع على استعداد للتعاون والمساعدة ولكن لا شيء يتحرك من مكانه. وضحك فقالت السيدة "**كلايتون**":

– لا شك في أنك ستصل إلى نتيجة إن عاجلا أو آجلاً، وقد أحسن الدكتور "**راتبون**" في اختيارك لهذه المهمة، ولولا ذلك لبقيت الصناديق في الجمرك شهورا عديدة.

– منذ أن بدأت أحداث "**فلسطين**" وهم يخشون القنابل والمطبوعات المثيرة.. إنهم يرتابون في كل شيء. فقالت السيدة "**كلايتون**" وهي تنظر إلى زوجها:

– أرجو ألا يجدوا في صناديق الدكتور "**راتبون**" بعض القنابل.. فأجاب الزوج:

– يا صديقتي العزيزة، إن الدكتور "**راتبون**" عالم كبير وعضو في عدة أكاديميات، ورجل معروف ومحترم في "**أوربا**" كلها.. وكان في صوته ولهجته معنى التأنيب، ولكن زوجته تجاهلت ذلك وقالت:

– مادام الأمر كذلك فإنه يستطيع الاشتغال بتهريب الأسلحة دون أن يثير ريبة أحد.

فلم يجب "**كلايتون**"، ورأت "**فيكتوريا**" على وجهه مظاهر الامتعاض. وبعد الغداء خرجت "**فيكتوريا**" و"**إدوارد**" للنزهة على ضفة "**شط العرب**"، وتوغلا في سيرهما حتى وصلا إلى السوق، ثم عادا في الطريق إلى القنصلية.. وفجأة، قالت "**فيكتوريا**" لصاحبها:

– حدثني يا "**إدوارد**" ما لقبك؟ إنك لم تذكر لي اسم أسرتك..

– يا إلهي!! هذا صحيح.. إن اسمي كاملا هو "**إدوارد جيرنج**".

– الواقع أنني شعرت بشيء من الحرج حين ذهبت إلى "**غصن الزيتون**". للسؤال عن شخص لا أعرف عنه إلا أنه يدعى "**إدوارد**"..

– ألم تقابلي هناك فتاة ذات شعر أسود؟

– بلى، قابلتها.

– إنها تدعى " **كاترين** "، وهي فتاة ظريفة.. ولو أنك ذكرت أمامها اسم "**إدوارد**" لعرفت على الفور من تعنين. أنا واثق بأنك و" **كاترين** " سوف تصبحان خير صديقتين.

– لا أظن أن هناك ما يدعو إلى لقائنا.

– ولِمَ لا؟ سأسعى لإلحاقك بعمل في "**غصن الزيتون**" .

– كيف؟

– لا أعلم. ولكني سأفكر في الأمر.. سأقول لـ" **راتبون** " إنك تجيدين الاختزال والكتابة على الآلة الكاتبة.. إلخ..

– ولكنه سوف يلاحظ أن هذه ليست الحقيقة.

– مهما يكن الأمر، فسأجد لك عملاً في المكتبة؛ لأنني لا أرضى أن تقضي وقتك في الطواف هنا وهناك بحثًا عن وظيفة.. ولكني أصارحك من الآن بأن العمل في المعهد لن يكون سهلاً كما تتوهمين..

– ذلك بالإضافة إلى أن نشاط المعهد يثير الريبة.. أليس هذا رأيك؟

– بلى، أعتقد أنني قلت ذلك..

– وأنا بدوري أعتقد أنك على حق.. فتحول إليها وسألها بحدة:

– وما حملك على هذا الاعتقاد؟

– بعض أمور سمعتها من أحد أصدقائي.

– من هو؟

– أحد الأصدقاء.. فقلب "**إدوارد**" شفته ولم يجب.. وقالت " **فيكتوريا** " بعد لحظة:

– حدثني يا "**إدوارد**" .. ألا يوجد بين المترددين على "**غصن الزيتون**" شخص يدعى "**لافارج**" ؟

– "**لافارج**" ؟ كلا.. من يكون "**لافارج**" هذا؟

– و"**هيلين شيل**" ؟ ألا يذكرك هذا الاسم بشيء؟

وكان رد الفعل في هذه المرة سريعًا، فقد استدار "**إدوارد**" إلى " **فيكتوريا** "

وأمسك بيدها بشدة وسأل:

– ماذا تعلمين عن "**هيلين شيل**"؟

– دع يدي يا "**إدوارد**". إنك تؤلمني.. أنا لا أعلم عنها شيئا.. إنني أسألك إذا كنت تعرف شيئًا.

– من حدثك عنها؟ السيدة "**كليب**"؟

– كلا.. لا أذكر تماما.

– وما يحملك على الظن بأن لـ"**هيلين شيل**" صلة بـ"**غصن الزيتون**"؟

– وهل أخطأت في هذا الظن؟

– لا أعلم. لا أعلم. كل شيء يبدو غامضا.

وكانا قد وصلا إلى سور الحديقة فنظر "**إدوارد**" إلى ساعته وقال:

– يجب أن أذهب لمقابلة رجال الجمرك.. مما يؤسف له أنني لا أعرف اللغة العربية. سأتركك الآن ولكن لوقت قصير.. فإن هناك أشياء كثيرة أريد أن أسألك عنها..

– وأنا لديّ أشياء كثيرة أريد أن أقولها لك.. وفي المساء، خرج الشابان للنزهة مرة أخرى، وشغلهما الحديث عن الاستمتاع بجمال الطبيعة في ضوء القمر. وكانت "**فيكتوريا**" قد قررت مصارحة "**إدوارد**" بقصتها، فقالت:

– لقد بدأ كل شيء ببساطة تامة.. فتح باب غرفتي بفندق "**تيو**".. ودخل رجل.. ولم يلبث الرجل أن مات بضربة خنجر.

– ماذا قلت؟

– قلت إنه مات بضربة خنجر.. ولو استخدموا في قتله مسدسا لسمعت صوت الطلق الناري.. مهما يكن الأمر فإنه مات..

– مات ثم دخل غرفتك؟

– لا تكن مغفلا يا "**إدوارد**".. وسردت عليه القصة كلها.. ولكن ليس بالبراعة التي اعتادت أن تكذب بها، وكانت النتيجة أن "**إدوارد**" سألها حالما فرغت من قصتها:

– هل أنت بخير يا "**فيكتوريا**" ؟ هل أنت واثقة بأنك لم تصابي بضربة شمس؟
فنظرت إليه مستنكرة. ولم تجد ما تعقب به على سؤاله فقال:

– إنك تذكرين أمورا لا يمكن تصديقها.. فالمنظمة العالمية التي عنها تتحدثين، والاستعدادات السرية التي تجري في "**التبت**" أو "**بوخارستان**" كل هذه أمور لا وجود لها إلا في القصص. حقًّا إنك فتاة خصبة الخيال يا "**فيكتوريا**" اعترفي بأن كل ما ذكرته هو من اختراعك.. وأنك ما سألتني عن "**هيلين شيل**" إلا لتؤيدي قصتك الخيالية.

– ولكنك سمعت بهذا الاسم من قبل.. أنا واثقة بذلك..

– أعتقد أن بعضهم ذكره أمامي..

– أين؟ في "**غصن الزيتون**" ؟ فكر "**إدوارد**" لحظة ثم قال:

– ربما.. إن الأمر يبدو غريبا..

– تكلم..

– إني أعجب بك يا "**فيكتوريا**".. ولكني لست مثلك، وليس لي ذكاؤك. إنني أشعر بالأمور، ولكني لا أحسن التعبير عنها..

– إذن لا تجهد نفسك. فإنني أعرف هذا الشعور. وقد خالجني آخر مرة في فندق "**تيو**" عندما رأيت السيد "**روبرت**" جالسا في الشرفة.

– السيد "**روبرت**"؟

– نعم السيد "**روبرت كرفتون لي**".. لقد كان معي في الطائرة.. ولكني عندما رأيته في شرفة الفندق.. أحسست إحساسا غامضا بأنه غير طبيعي، وأنه يفتقر إلى شيء يكمل انطباعاتي الأولى عنه. أما ما هو هذا الشيء؟ فذلك ما لا أعلمه ولا أستطيع التعبير عنه.

– أعتقد أن "**راتبون**" طلب إليه إلقاء محاضرة في "**غصن الزيتون**".. ولكني أظن أنه استقل الطائرة أمس إلى "**دمشق**" أو إلى "**القاهرة**"..

– لنعد إلى حديثنا عن "**هيلين شيل**"..

– كل ما أذكره.. هو أنني سمعت إحدى الفتيات تردد اسمها..

– "**كاترين**" ؟

– رُبما كانت هي.

– وماذا قالت عن "**هيلين شيل**" ؟

– كانت تتحدث مع فتاة أخرى في "**غصن الزيتون**" .. وسمعتها تقول:

– سوف تتغير الأوضاع لدى وصول "**هيلين شيل**" . فإننا لا نتلقى الأوامر إلا منها.. ومنها وحدها.

– ألم يثر هذا الكلام دهشتك وفضولك يا "**إدوارد**" ؟

– لا.. فلقد قلت لنفسي إنهما ربما تنتظران رئيسة جديدة لشؤون المكتبة.. ولكن أصدقيني يا "**فيكتوريا**" .. هل أنت واثقة بأن القصة التي سردتها عليَّ لم تكن مجرد حلم؟ فرمقته بنظرة صاعقة أرغمته على التراجع، والاعتذار. قال:

– معذرة يا "**فيكتوريا**" .. الواقع أنني لم أستطع تجاهل القصص العجيبة التي دأبت على اختراعها. كقصة أسقف "**لانجو**" . وقصة "**بونسفوت جونز**" .. وغيرهما. فهزت كتفيها وأجابت:

– هذه كانت مجرد دعابات صبيانية. أما القصة التي سردتها عليك اليوم فإنها جادة.. وعلى جانب عظيم من الأهمية.

– وهل أحسست بأن المدعو "**داكن**" كان مقتنعا بصحة المعلومات التي ذكرها لك؟

– كان مقتنعا تمام الاقتناع.. ولكن حدثني يا "**إدوارد**" كيف علمت؟

ولم تتم عبارتها، فقد سمعت في هذه اللحظة صوتا صادرا من الشرفة يهتف بهما:

– أما آن لكما أن تدخلا؟ لقد أعددت لكما قدحي القهوة..كان ذلك صوت السيدة "**كلايتون**" . فهرول الشابان إلى الداخل..كانت "**فيكتوريا**" تتناول طعام الفطور على مائدة آل "**كلايتون**" في صباح اليوم التالي، حين فتح "**جيرالد كلايتون**" جهاز الراديو لسماع نشرة الأخبار.. وشرع المذيع يتلو الأنباء قال:

أعلن رئيس الوزراء في مجلس العموم أمس تفصيلات جديدة عن قيود

الاستيراد.. جاء من "**القاهرة**" أن جثة السيد "**روبرت كرفتون لي**" وجدت طافية في النيل.. فوضعت "**فيكتوريا**" قدح الشاي على المائدة أمامها ونظرت في هلع إلى السيدة "**كلايتون**" التي أرسلت آهة ذعر ودهشة.. ومضى المذيع يقول:

كان السيد "**روبرت**" قد وصل بالطائرة إلى "**القاهرة**" قادمًا من "**بغداد**".. ونزل بأحد الفنادق الكبرى في العاصمة المصرية، وغادر الفندق في المساء وانقطعت أخباره طوال الأربع والعشرين ساعة التالية إلى أن وجدت جثته، وقد أثبت الفحص الطبي أنه لم يمت غرقًا وإنما قتل بطعنة خنجر أصابت القلب..

والسيد "**روبرت**" رحالة ذائع الصيت، اكتسب شهرته من رحلاته إلى "**الصين**" و"**بوخارستان**".. وله بضعة مؤلفات قيمة.. قالت السيدة "**كلايتون**" وقد فر لونها:

– مات مقتولاً؟ يا إلهي!! هل كنت تعلم ذلك يا "**جيرالد**"؟ فأجاب "**كلايتون**":

– علمت أنه اختفى.. ويبدو أن شخصا حمل إليه رسالة فقرأها وغادر الفندق على الأثر.. دون أن يذكر اسم المكان الذي ذهب إليه.. وبعد لحظات خلا المكان إلا من "**فيكتوريا**" و"**إدوارد**" فقالت الفتاة:

– ما قولك الآن؟ ألا تزال تعتقد أنني اخترعت القصة؟ لقد قتل "**كارمايكل**" أولاً، ثم لحق به السيد "**روبرت**" ويبدو أن كل من له صلة بالموضوع مصيره إلى الهلاك.. ومن يدري فلعل دوري قد قرب..

– أرجوك يا "**فيكتوريا**".. لا تتكلمي بهذه اللهجة كما لو كان الأمر مجرد دعابة.. على أنني لا أرى ما يبرر مخاوفك. فإنك لا تعلمين شيئا بصفة مؤكدة، وليس لك في الموضوع أي دور إيجابي.. وموقفك منه لا يختلف عن موقفي.

– أنا التي جررتك إلى هذا المأزق.. فهز كتفيه وقال:

– أرجو أن أكون في مأزق حقًا.. فإن ذلك يضفي شيئا من الإثارة على الحياة المملة التي أحياها...

الفصل السادس عشر

-1-

قال "**داكن**" :

– حدثيني.. هل وجدت صديقك؟ فاومأت "**فيكتوريا**" برأسها علامة الإيجاب.. قال:

– وهل اكتشفت شيئًا؟

– لا.. كانت تبدو عليها دلائل الضيق فابتسم "**داكن**" وقال:

– ليس ثمة ما يدعو إلى الأسى.. وينبغي أن تذكري دائما أن النتائج في هذه اللعبة قلما تأتي بسرعة..

– وهل أستمر؟

– وهل يهمك أن تستمري؟

– بالتأكيد. فقد وعدني "**إدوارد**" بعمل في "**غصن الزيتون**"، وأعتقد أنني إذا فتحت عيني هناك فقد أقع على بعض الأمور المهمة.. وخاصة عن "**هيلين شيل**".

– إنهم يعرفونها هناك.

– أحقًا تقولين؟ وكيف اكتشفت ذلك؟ فقصت عليه "**فيكتوريا**" ما سمعه "**إدوارد**" من "**كاترين**" وقال "**داكن**" :

– هذا أمرعلى جانب عظيم من الأهمية..

– ولكن من هي "**هيلين شيل**" هذه؟ هل تعرف عنها شيئًا؟ أم أنها بالنسبة إليك مجرد اسم؟

– "**هيلين شيل**" هي سكرتيرة أحد كبار الماليين في "**أمريكا**". ومدير أحد البنوك الدولية الكبرى.. وقد رحلت من "**نيويورك**" إلى "**لندن**" منذ عشرة أيام واختفت بعد ذلك..

– اختفت؟! لا شك في أنك لا تريد أن تقول إنها ماتت..

– إذا كانت قد ماتت فإن جثتها لم يعثر عليها..

– ولكن هل ماتت؟

– ربما..

– وهل كان يجب أن تأتي إلى "**بغداد**"؟

– لا أعلم. لكن إذا صح ما سمعه "**إدوارد**" من المسماة "**كاترين**" فلابد أن "**هيلين شيل**" كانت تنوي الحضور إلى "**بغداد**".. على أنه ليس لدينا – حتى هذه الساعة – ما يحملنا على الاعتقاد بأنها ليست على قيد الحياة..

– ربما، ولكني أناشدك أن تكوني حذرة.. فنحن نناضل أشخاصا لا يتحرجون من شيء.. ولست أريد أن يعثر على جثتك يوما ما طافية في نهر "**دجلة**"..

– كما عثر على جثة السيد "**روبرت كرفتون لي**"؟ وبمناسبة الحديث عن سيد "**روبرت**".. لقد لاحظت عندما رأيته في فندق "**تيو**" منذ أيام أن شيئا فيه أثار حيرتي..

– شيئًا فيه أثار حيرتك؟ أي شيء تعنين؟

– هذا ما أحاول أن أتبينه.. ولعله أمر لا يستحق الاهتمام.

– إن أتفه الأمور قد تكون ذات أهمية كبرى..

– من راي "**إدوارد**" أنني إذا وفقت إلى عمل في "**غصن الزيتون**"، فيجب أن أنتقل من فندق "**تيو**" إلى غرفة مفروشة عند إحدى العائلات، أسوة بالفتيات اللاتي يعملن في المعهد.

– الواقع، إن ذلك أفضل.. يبدو أن صديقك "**إدوارد**" شاب متزن التفكير..

– هل تريد أن تقابله؟

– لا، بل قولي له ألا يحاول مقابلتي حتى لا يتورط في الموضوع كما تورطت أنت بعد موت "**كارمايكل**"، إنه الآن بعيد عن الشبهات والأفضل أن يظل كذلك..

– كنت أود أن أعرف من الذي قتل "**كارمايكل**". هل قتله شخص تبعه إلى الفندق؟

– لا، فذلك مستحيل.

– مستحيل؟!

– إنه جاء عن طريق النهر، ولم يكن هناك من يتعقبه، نحن نعلم ذلك؛ لأن رجالنا كانوا يراقبون النهر.

– هل قتله إذن شخص كان موجودا في الفندق؟

– أكاد أجزم بذلك. وبالتحديد فإن القاتل كان يقيم في هذا الجناح بالذات، وقد كنت أراقب السلم بنفسي ولم أر أحداً يأتي عن طريقه. وفكر "**داكن**" لحظة ثم استطرد قائلاً:

– وذلك يسهل عملية حصر المشتبه فيهم.. إذ لم يكن في هذا الجناح سواك أنت والسيدة "**كارديو ترينش**" و"**تيو**" وشقيقتيه، وخادمين عجوزين يعملان في الفندق منذ عدة أعوام، ورجل يدعى "**هاريسون**" من موظفي شركة البترول في "**كركوك**"، ويخيل إليّ أنه رجل شريف، ثم ممرضة بالمستشفى الإسرائيلي. ولكن لا يحتمل أن يكون القاتل واحدا من هؤلاء.

– لماذا؟

– لأن "**كارمايكل**" كان شديد الحذر، وكان يعلم أنه وصل إلى أخطر مرحلة في مهمته، ثم إنه كان يتمتع بما يشبه أن يكون لديه حاسة سادسة تنبهه إلى الخطر.

– إذن هل قتله رجلا الشرطة؟

– إنهما حضرا فيما بعد، جاءا من الشارع، ولابد أنهما تلقيا إشارة من شخص ما، ولكنهما ليسا القاتلين، القاتل إما شخص كان "**كارمايكل**" يعرفه ويثق به، أو إنسان نكرة تافه لا يؤبه به. ليتني أعرف فقط أي الافتراضين أصح!!

– 2 –

استطاع "**إدوارد**" بطريقة ما – لم تعرفها "**فيكتوريا**" – أن يجد لها عملا في "**غصن الزيتون**" بمرتب ضئيل، فكانت تقضي كل وقتها في غرفة مظلمة مضاءة بالكهرباء بصفة مستمرة، حيث تكتب مختلف الرسائل والنشرات ذات الصلة بأعمال المعهد على آلة كاتبة رديئة. لقد قال لها "**إدوارد**" إنه يرتاب في نشاط

المعهد. وأيد "**داكن**" هذا الرأي، وحضها على أن تحاول معرفة ما إذا كان هذا الرأي يقوم على أساس، وكانت تتمنى أن تجد شيئا.

- إلا أنه لم يكن هناك شيء تستطيع أن تجده.

كانت رسالة المعهد هي دعم السلام بين الشعوب، فكانت تعقد فيه الاجتماعات،، وتلقى المحاضرات، وتوزع الشطائر وعصير البرتقال، ولكن لم تكن هناك أسرار أو مؤامرات.

وكانت "**فيكتوريا**" قد غادرت فندق "**تيو**" وأقامت في أحد البنسيونات على الضفة اليسرى للنهر، مع بعض فتيات من جنسيات مختلفة بينهن "**كاترين**". وقد أحست "**فيكتوريا**" بأن "**كاترين**" ترمقها بنظرات تنم عن السخط والكراهية، ولكنها لم تعلم هل ذلك لأنها ترتاب في أمرها، أو لأنها تغار منها. وبعد طول تفكير رجحت "**فيكتوريا**" الافتراض الأخير، فقد كان معروفا أنها تدين بوظيفتها لـ"**إدوارد**" ولم تكن "**كاترين**" هي الوحيدة التي أكلت الغيرة قلبها، فإن جميع فتيات المعهد كن مولعات بـ"**إدوارد**"، وكان "**إدوارد**" يعاملهن على قدم المساواة، فلا يؤثر إحداهن على الأخرى، غير أن صلته بـ"**فيكتوريا**" - أمام الأخريات - كانت تتسم بمزيد من التحفظ. ولكن على الرغم من اقتناع "**فيكتوريا**" بأن نشاط "**غصن الزيتون**" فوق الشبهات، فإن سلوك مؤسس المعهد كان يثير في نفسها الريب والمخاوف. فقد حدث أكثر من مرة أنها لاحظت أنه يرمقها خلسة بنظرات فاحصة، وودت لو تعرف ماذا يظن هذا العجوز بها.. وهل يرتاب في الأسباب التي حملتها على العمل في المعهد.

كانت تعليمات "**داكن**" محددة، وقد اتفق معها على طريقة الاتصال به.. فيما لو كانت لديها معلومات تود الإفضاء بها إليه. فأعطاها منديلاً وردي اللون، وطلب إليها إذا أرادت مقابلته أن تتنزه على ضفة النهر كما اعتادت أن تفعل كل مساء، إلى أن تجد سلما يؤدي إلى المكان الذي ترابط فيه قوارب النزهة والصيد فتضع قطعة من المنديل في مسمار مثبت في جدار السلم.. وقد انتهزت "**فيكتوريا**" فرصة سفر "**إدوارد**" إلى "**إيران**"، فاتصلت بـ"**داكن**" بالطريقة المتفق

عليها.. لا لشيء إلا لتصارحه بأنها لم تقع على جديد، وأن حياتها في المعهد مملة إلى أقصى حد. فسألها "**داكن**":

– والدكتور "**راتبون**"؟ هل هو رجل أمين؟ ولم تدر "**فيكتوريا**" بماذا تجيب. فقال "**داكن**":

– الواقع أن الدكتور "**راتبون**" هو الشخص الوحيد الذي يثير قلقي؛ لأنه رجل ذو مركز مرموق، فإذا افترضنا أن هناك مؤامرة لاغتيال إحدى الشخصيات المهمة التي ستشترك في مؤتمر "**بغداد**". فإن أحدا من الطلاب، أو شباب الثوار لن تتاح له فرصة للاقتراب من الزعماء الكبار، وأية محاولة لإلقاء قنبلة سوف تبوء بالفشل؛ لأن رجال الشرطة سيطوفون الشوارع الرئيسية، وسيحيطون الزعماء المنتظر قدومهم إلى "**بغداد**" بحراسة مشددة، أما "**راتبون**" فإنه في حد ذاته مشكلة؛ لأنه شخصية معروفة ومحترمة، ويستطيع إذا شاء أن يلبي الدعوات التي سترسل إليه لحضور حفلات الاستقبال التي ستقام تكريما للزعماء وبذلك تتاح له – كل الفرص الممكنة. ولهذا أريد أن أعرف حقيقة موقفه..

وفي اليوم التالي، عاد "**إدوارد**" من رحلته، وقدم إلى "**فيكتوريا**" بعض الأوراق لكتابتها قائلا:

– الدكتور "**راتبون**" يرجو أن تكتبي هذه الأوراق فورا، مع الاهتمام بالصفحة الثانية بصفة خاصة؛ لأنها حافلة بأسماء عربية معقدة. فتنهدت "**فيكتوريا**"، وشرعت تستخدم الآلة الكاتبة. كان خط الدكتور "**راتبون**" واضحا، وسرعان ما فرغت من نسخ الصفحة الأولى وعندما بدأت تكتب الصفحة الثانية، أدركت لماذا حرص "**إدوارد**" على لفت نظرها إلى هذه الصفحة خاصة.. فقد وجدت رقعة صغيرة ملصقة بالصفحة الثانية ومكتوبة بخط "**إدوارد**". قرأت فيها هذه الكلمات:

« اذهبي للنزهة على ضفة نهر "**دجلة**" في الساعة الحادية عشرة صباحا، وسأكون في انتظارك بالقرب من بيت الملك "علي"». وفرغت "**فيكتوريا**" من كتابة الأوراق، وحملتها إلى الدكتور "**راتبون**"، فتصفحها هذا ببطء. وكانت

"**فيكتوريا**" قد همت بالانصراف فبادرها بقوله:

– هل أنت سعيدة هنا يا "**فيكتوريا**"؟

– نعم يا دكتور.. شكراً لك. فنظر إليها بحدة، واضطرت إلى أن تطرق برأسها. قال:

– أخشى أن يكون الأجر الذي تتقاضينه ضئيلاً..

– لا أهمية لذلك، أنا أحب عملي..

– أحقًّا؟

– نعم.. إنني أشعر بأنني أؤدي عملا يستحق الجهد الذي يبذل فيه.. فقال دون أن يحول عينيه عن وجهها:

– وهل يوفر لك هذا الأجر مطالب الحياة؟

– نعم – إنني أقيم في غرفة لا تكلفني كثيرا. لدى أسرة أرمينية. الواقع أن "**بغداد**" تفتقر إلى كاتبات الاختزال، وأعتقد أنك تستطيعين الحصول بسهولة على وظيفة أفضل بأجر أكبر.

– ولكني لا أود استبدال وظيفة أخرى بوظيفتي هنا.

– ربما كان من الحكمة أن تفعلي. فهتفت بصوت مرتجف:

– من الحكمة؟

– هذا ما قلته، إنها مجرد نصيحة صغيرة، مجرد رأي. وكان في صوته ما يشبه التهديد، فلم تحاول الفتاة إخفاء دهشتها. قالت:

– الواقع أنني لا أفهم يا دكتور!!

– إن من الحكمة ألا يقحم الإنسان نفسه في أمور لا يفهمها.. وكان التهديد في هذه المرة واضحا. واستطرد الرجل قائلا:

– لماذا جئت للعمل هنا؟ هل جئت من أجل "**إدوارد**"؟

– كلا بالتأكيد.. فهز الشيخ رأسه وقال:

– إن "**إدوارد**" لا يزال في أول السلم، ولابد أن تمر سنوات عديدة قبل أن يتمكن من عمل شيء من أجلك.. ولو كنت مكانك لأقلعت عن التفكير فيه، ولهذا قلت

لك إن في استطاعتك أن تجدي عملا آخر في "**بغداد**" بأجر أفضل، عملا يؤمن مستقبلك.. مع أناس في مستواك.. فقالت بحدة:

– ولكني أحب العمل في "**غصن الزيتون**" يا دكتور.. فهز كتفيه. وأشاح بوجهه.. وانصرفت "**فيكتوريا**" وهي في حيرة من أمر هذا الحديث.

ترى هل فعلت شيئا أثار ريبة الدكتور "**راتبون**"؟ ترى هل أدرك أنها جاسوسة؟

الفصل السابع عشر

في اليوم التالي ذهبت "**فيكتوريا**" للقاء "**إدوارد**" في الموعد المتفق عليه، ووجدته يدخن لفافة تبغ بجوار سيارة سوداء عتيقة.. وهتف "**إدوارد**" حالما رآها:

– حسن.. كنت أخشى أن تضلي الطريق.. اصعدي إلى السيارة.. فأطاعته مغتبطة وسألت:

– إلى أين سنذهب؟

– إلى خرائب "**بابل**".. أليس من حقنا أن نلهو قليلا بعيدا عن "**غصن الزيتون**"؟

وتحركت بهما السيارة. وحين نطق "**إدوارد**" باسم "**غصن الزيتون**".. تذكرت "**فيكتوريا**" حديثها مع الدكتور "**راتبون**" وكان لا يزال يقلقها. فرأت من الحكمة أن تفضي به إلى "**إدوارد**"، الذي هتف بعد سماع روايتها:

– ولكن هذا خطير جدًا يا "**فيكتوريا**".. ماذا قال لك بالتحديد؟ فبذلت "**فيكتوريا**" قصارى جهدها لاستعادة الكلمات التي استخدمها "**راتبون**" في حديثه، وصاح "**إدوارد**" وعلى وجهه مظاهر الانزعاج:

– ألم تفهمي أيتها الصغيرة المسكينة أن هذا الرجل يضمر لك سوءا. كانت كلماته بمثابة تحذير وإنذار.. وهذا أمر خطير!! إن هؤلاء الناس لا يقفون في شرورهم عند حد. وأنا لا أريد أن أسمع يوما نبأ العثور على جثتك في نهر "**دجلة**". فأطرقت "**فيكتوريا**" برأسها ولم تجب. وبعد رحلة شاقة في طريق وعر

استغرقت زهاء الساعتين توقفت بهما السيارة عند خرائب "**بابل**". وكانت "**فيكتوريا**" تتوقع أن ترى أعمدة من الرخام وبقايا أقواس نصر كتلك التي رأتها في صور خرائب "**بعلبك**"، ولكنها لم تجد أمامها سوى حوائط من الطوب، وأكوام من الحجارة.

وبعد أن طافا المكان، انتحيا ركنا تناولا فيه الطعام الذي أحضره "**إدوارد**" معه. ثم تمددا فوق الرمال طلبا للراحة، وأغمضت "**فيكتوريا**" عينيها وراحت تفكر وتتحدث إلى نفسها:

– هأنذا بين خرائب "**بابل**" من يصدق ذلك..؟ لا شك في أنني في حلم، وأنني متى استيقظت وفتحت عيني فسأجد نفسي في "**لندن**".. في مكتب السيد "**جرينهولز**".. وسأكتشف أن "**إدوارد**" لم يكن إلا شخصا من صنع خيالي.. فتحت عينيها.. كلا.. إنها لا تحلم.. فها هي ذي الشمس المحرقة تصليها نارا حامية.. إنها تختلف تماما عن شمس "**لندن**". وها هو "**إدوارد**" ممدد بجوارها.

ما أجمل شعره الطويل المنسدل فوق عنقه! ثم إن عنقه جميل أيضًا مثل شعره.. وليس فيه تجاعيد أو بثور.. أو ندبات.. أو حتى شامة واحدة.. كتلك التي رأتها في عنق السيد "**روبرت**" حين جلس على المقعد الذي أمامها في الطائرة. وفجأة، أفلتت من فمها آهة عميقة، فاستدار إليها "**إدوارد**" وسأل:

– ماذا حدث؟

– تذكرت شيئا، عن السيد "**روبرت كرفتون لي**". فحملق إليها وكأنه يطلب إيضاحًا فقالت:

– كانت له شامة في عنقه.

– أحقًّا؟

– نعم. كان جالسا أمامي في الطائرة، فرأيت الشامة..

– وأية غرابة في ذلك؟

– إنك لم تفهم يا "**إدوارد**"!! عندما رأيت السيد "**روبرت**" في شرفة فندق

"**تيو**"، لم يكن في عنقه أثر الشامة.

– وماذا في ذلك؟

– فكّر جيداً يا "**إدوارد**". في الطائرة كانت في عنقه شامة. وفي الفندق لم يكن هناك أثر للشامة.

– ربما أزالها؟

– لو أنه أزالها لتركت أثرا.. أصغ إليّ يا "**إدوارد**". إن الرجل الذي رأيته في فندق "**تيو**" لم يكن هو السيد "**روبرت**". فنظر إليها في ذهول وهتف:

– لا شك في أنك فقدت صوابك يا "**فيكتوريا**"، ألم تقولي إنك رأيته وعرفته في الفندق؟

– عرفت قبعته ومعطفه، ومظهره.

– ولكنهم عرفوه في السفارة.

– في السفارة؟ إنه لم يذهب إلى السفارة، وإنما ذهب إلى فندق "**تيو**". كان هناك أحد الملحقين في انتظاره في المطار، أما السفير فكان في "**لندن**" يضاف إلى ذلك أن السيد "**روبرت**" كان كثير الأسفار.. فلم يره الناس في "**إنجلترا**" إلا فيما ندر.

– ولكن لماذا قُتل؟

– لماذا؟ بسبب "**كارمايكل**" الذي كان مقررا أن يلتقي به في "**بغداد**" ليعرف منه الحقائق التي اكتشفها في رحلاته، ولم يكن الرجلان قد تقابلا من قبل، وعندما رآه "**كارمايكل**" في الفندق لم يعرفه، ولم يرتب في أمره، ومن المحقق أن السيد "**روبرت**" الزائف هو الذي قتل "**كارمايكل**"، هذه حقيقة مؤكدة يا "**إدوارد**".

– أنا واثق بأنك تخدعين نفسك يا "**فيكتوريا**"، هل نسيت أن السيد "**روبرت**" قتل فيما بعد، في "**القاهرة**"؟

– نعم. إنه قتل في "**القاهرة**".. هذا مخيف يا "**إدوارد**". أستطيع أن أقول إنني كنت هناك حين قتل.

– هذا هو الجنون بعينه.

– كلا.. أصغ إليَّ يا "**إدوارد**".. إنني أذكر الآن ما حدث.. لقد هبطت بنا الطائرة في "**القاهرة**"، فانتظرنا في صالة "الترانزيت" ريثما يتم تموين الطائرة وتستعد للإقلاع.. وكان السيد "**روبرت**" يجلس على مقربة مني فجاءت إحدى المضيفات وقالت له إنه مطلوب في "المكتب" وأشارت إلى غرفة تبعد بضع خطوات.

وتصادف أنني غادرت مكاني بعد لحظات؛ لأبتاع شيئا من المرطبات.. ومررت بالمكتب الذي أشارت إليه المضيفة.. وجدت على بابه لافتة كتب عليها "مكتب المراقبة".. وفي نفس اللحظة فتح الباب وخرج منه السيد "**روبرت**".. أنا واثقة الآن بأن هذا الذي خرج من المكتب هو السيد "**روبرت**" الزائف، أما السيد "**روبرت**" الحقيقي، فإن قاتليه كانوا في انتظاره في المكتب المزعوم، فلما دخل أفقدوه الرشد بطريقة ما.. وأكبر الظن أنهم خدروه، واحتفظوا به، ثم قتلوه بعد أن عاد السيد "**روبرت**" الزائف من "**بغداد**".

– قصة طريفة يا "**فيكتوريا**" ولكن لا يمكن تصديقها.. خاصة وأنه ليس لديك دليل على أن...

– الدليل هو الشامة..

– آه! الشامة..

– وهناك دليل آخر.

– ما هو؟

– اللافتة التي على باب المكتب.. لقد اكتشفت فيما بعد، ونحن في طريقنا إلى المكتب، أن هذه اللافتة قد أزيلت من مكانها.. وثمة أمر آخر. تلك المضيفة التي استدعت السيد "**روبرت**" للذهاب إلى مكتب المراقبة المزعوم.. لقد رأيتها مرة أخرى في "**بغداد**" في معهد "**غصن الزيتون**" عندما ذهبت إليه لأول مرة. إنها وصلت حين كنت أتحدث إلى الدكتور "**راتبون**". وعندما غادرت مكتب الدكتور رأيتها تتحدث مع "**كاترين**". وأحسست وقتئذ بأنني رأيتها من قبل.. الآن

تذكرت كل شيء.. وصمتت لحظة ثم استطردت قائلة:

– صدقني يا "**إدوارد**" إن ما ذكرته لك الآن ليس حلماً..

– فهزَّ الشاب رأسه وقال:

– أريدك أن توثقي صلتك بهذه الفتاة.. فإننا عن طريقها نستطيع أن نعرف الكثير.. تملقيها واعملي على كسب صداقتها، وتظاهري بأنك تشاطرينها آراءها وعقائدها.. ثم حاولي أن تعرفي من هم أصدقاؤها، ومن هم الذين تتردد عليهم في الخارج.

– ليس أيسر من ذلك، سأحاول.. ولكن حدثني هل أطلع "**داكن**" على كل ما ذكرته لك الآن؟

– بالتأكيد، ولكن يحسن أن تنتظري يوما أو يومين فقد تكتشفين خلال هذه الفترة شيئًا جديداً.

✽✽✽✽✽

كانت "**فيكتوريا**" راضية عن نفسها كل الرضا بعد اكتشافاتها الأخيرة، فلم يشق عليها في اليوم التالي أن تلاطف "**كاترين**" وتمازحها على الرغم مما تضمره لها من حقد وكراهية.

وقد بدأت حديثها مع "**كاترين**" بأن سألتها عما إذا كانت تعرف حلاقا موثوقًا به، يغسل شعرها ويصففه. ورمقتها "**كاترين**" بنظرة فاحصة. ثم قالت:

– أرى من شكل شعرك أنك كنت خارج المدينة أمس في أثناء العاصفة الرملية.

فأجابت "**فيكتوريا**":

– الواقع، إنني استأجرت سيارة ذهبت بها إلى خرائب "**بابل**"، وعند العودة هبت عاصفة رملية شديدة خُيِّل إليّ معها أنني سأفقد البصر، أو سأموت اختناقا.. فقالت "**كاترين**":

– إنني أصفف شعري عند فتاة أرمينية بارعة، وأنا على استعداد لأن أذهب بك إليها الليلة إذا شئت.

– لقد كنت دائما أعجب بشعرك، ولطالما تساءلت ترى ماذا تفعلين به لكي يبدو في هذا الجمال..؟

كانت تكذب بجرأة، ولكن كذبها أدخل السرور على نفس "**كاترين**" فلم تتمالك نفسها من الابتسام..

وفي المساء، غادرت الفتاتان المعهد، واجتازتا بعض الأزقة والدروب. ثم وصلتا أخيرا إلى باب صالون للحلاقة..

وكانت الآنسة "**إنكوميان**" الأرمينية صاحبة الصالون تتكلم الإنجليزية ولكن ببطء شديد. فادخلت "**فيكتوريا**" إلى غرفة كل ما فيها نظيف وأنيق.. وسكبت على شعرها سائلا تحول بعد قليل إلى فقاعات صابون.. وبعد أن عالجت خصلات الشعر بأصابعها قالت:

– والآن.. ضعي رأسك تحت الصنبور، وشعرت بالماء ينهمر على شعرها وفجاة، اشتمت رائحة نفاذة ذكرتها بالمستشفيات، وفي ذات اللحظة أحست بشيء مبلل يوضع فوق أنفها فحاولت أن تقاوم وأن تحرك رأسها، فلم تستطع، وخيل إليها أن يدا من حديد تضغط شيئًا على أنفها بقوة لا تقاوم وما هي إلا لحظة حتى غابت عن وعيها..

الفصل الثامن عشر

عندما أفاقت "**فيكتوريا**، كان ذهنها ملبداً بذكريات مضطربة غير واضحة، تذكرت مثلاً أنها أحست في وقت ما بأنها ألقيت في سيارة مع أشخاص كانوا يتناقشون باللغة العربية، وأنها وُضعت بعد ذلك في فراش، وسلطت على عينيها أضواء قوية، ثم كشف بعضهم عن ذراعها وغرز فيها إبرة فغابت عن وعيها مرة أخرى..

إنها الآن واثقة بأنها في تمام وعيها. ولكن ماذا حدث لها قبل ذلك؟ حاولت أن تستجمع أفكارها وتذكرت خرائب "**بابل**"، والشمس المحرقة والعاصفة الرملية،

و "**كاترين**" التي رافقتها إلى صالون امرأة أرمينية تغسل شعرها بالماء. ثم تذكرت تلك الرائحة النفاذة. كانت رائحة "**كلوروفورم**" بغير شك، ولكن ماذا حدث لها بعد ذلك؟

وجدت نفسها ممددة على فراش شديد الصلابة، ورأسها يكاد ينفجر من الصداع.. وُخيِّل إليها أن كل شيء يدور حولها.. وأن الأفضل لها أن تكف عن التفكير وتحاول أن تنام.. وعندما استيقظت، أحست بأنها أحسن حالاً، وكان الوقت نهارا، فأجالت البصر حولها ووجدت أنها في غرفة صغيرة أرضها من الطين، وليس بها من الأثاث سوى الفراش ومائدة عرجاء عليها آنية من الصفيح. ووقع بصرها في الجدار على نافذة صغيرة فأسرعت إليها، وأطلت منها، واكتشفت أن غرفتها تقع في الطابق الثاني من مبنى تحيط به أشجار الكافور والنخيل.. وتقدمت من الباب، وعالجته ووجدته مغلقا، ومتينا. فعادت إلى الفراش وجلست على حافته. ترى أين هي الآن؟ من المحقق أنها ليست في "**بغداد**".. وماذا يراد بها؟

وهنا تذكرت حديث السيد "**داكن**" حين نصح لها بألا تحاول القيام بدور البطلة.. ولم تتمالك نفسها من الابتسام. لا شك في أنها أفضت بكل ما تعلمه وهي تحت تأثير المخدر. شيء واحد أثلج صدرها.. هو أنها لا تزال على قيد الحياة!! إن كل ما تستطيع أن تفعله الآن.. هو أن تتجلد حتى يأتي "**إدوارد**" لإنقاذها.. ترى ماذا سيفعل "**إدوارد**" حين يكتشف اختفاءها؟ هل سيذهب إلى "**داكن**"؟ أو سيؤثر معالجة الأمر بمفرده؟ وهل سيرتاب في "**كاترين**"؟ وأضناها التفكير دون أن تجد جوابا لواحد من هذه الأسئلة..

الواقع.. أن كل شيء يتوقف على "**إدوارد**".. إنه لطيف ووسيم ولكن هل هو ذكي؟

إن السيد "**داكن**" رجل مفرط الذكاء ما في ذلك شك، ولكن هل سيتحرك للبحث عنها؟ إنها لا تعني شيئًا بالنسبة إليه. مجرد عميلة. ضمن آلاف العملاء.. جميعهم يجازفون ويتعرضون للأخطار والمهالك.. فإذا سقط أحدهم كان ذلك من سوء حظه.. وكل ما كانوا يفعلونه هو أن يزيلوا اسمه من قائمة العملاء. كلا.

إن "**داكن**" لن يحرك ساكنا للبحث عنها وإنقاذها. ثم إنه سبق أن حذرها، وكذلك حذرها الدكتور "**راتبون**".

وفجأة، سمعت وقع أقدام تقترب. وحركة مفتاح في القفل، ثم فتح الباب، ودخل رجل عربي يحمل صينية حافلة بأطباق الطعام، فوضع الصينية أمامها، ونظر إليها وهو يبتسم، وقال لها كلاما باللغة العربية لم تفهمه ولكن حركة يده كانت تعني: تناولي الطعام..ثم غادر الغرفة وأوصد الباب بالمفتاح. وفحصت "**فيكتوريا**" الطعام باهتمام، كان يتألف من الأرز والملفوف (الكرنب) والخبز عدا إناء للماء فأقبلت عليه تلتهمه بنهم. ولما فرغت من تناول طعامها، أحست بالراحة، وبدأت تفكر من جديد. لقد خدروها واختطفوها.. ولكن متى حدث ذلك؟

كان ذلك في إحدى الأمسيات.. منذ يومين أو ثلاثة أيام.. أو ربما أكثر.. ومرت الساعات بطيئة مملة.. ثم فتح الباب مرة أخرى ودخل حارسها حاملا صينية الطعام، وتبعته امرأتان محجبتان وقفتا على عتبة الباب. وراحتا تنظران إليها في فضول وتتبادلان الملاحظات وتتضاحكان.

ولكن الحارس لم يلبث أن أومأ إليهما بالانصراف، ثم وضع الصينية أمام "**فيكتوريا**"، وحمل الصينية الأولى.. ومضى إلى الباب. وقبل أن ينصرف، استدار إلى "**فيكتوريا**" وقال:

– باكر.. باكر.. باكر. وكانت "**فيكتوريا**" تعرف هذه الكلمة.. إنها تعني غدا. إذن فسيحدث شيء غدا.. ولكن ماذا؟

هناك احتمالان لا ثالث لهما: إما أنها ستسترد حريتها غدا، أو أنها ستفقد حياتها.. وتمنت متى جاء الغد أن تكون في مكان آخر. ولكن هل يمكن ذلك؟

ولأول مرة، بدأت تفكر من جديد في الفرار.. واقتربت من الباب. لم يكن القفل من النوع الذي يمكن فتحه بدبوس الشعر. أما النافذة فكان يسهل الفرار منها. بشرط ألا تحدث ضوضاء.. ولكن العقبة الوحيدة هي أن الوثوب من ارتفاع خمسة أمتار قد يؤدي إلى كسر ساقيها.

لقد جرت العادة في القصص أن تصنع البطلة حبلاً من أغطية الفراش تتدلى به من النافذة، ولكن من سوء الحظ أن فراش "فيكتوريا" لم يكن عليه أغطية. ولكنها لم تفقد شجاعتها، وصممت على الفرار، كانت تعلم أن حراسها أناس بسطاء لا يخطر لهم ببال أن امرأة سجينة في غرفة مغلقة يمكن أن تجد طريقة للفرار. أما أعداؤها الخطيرون الذين اختطفوها، فإنهم ليسوا في ذلك البيت، ولكنهم سيأتون غدا.

قالت تحدث نفسها: «والنتيجة.. هي أن الفرار يجب أن يتم اليوم.. فلنبدأ الآن بتناول طعام العشاء. وكان الطعام يتألف من الأرز واللحم. والبرتقال، فالتهمت ذلك كله التهاما.. وعندما أرادت أن تشرب جرعة من الماء. ارتطمت يدها بالإناء فانقلب وسال بعض ما كان فيه على المائدة وسقط على الأرض، ولما كانت الأرض من الطين فقد أحدث فيها الماء حفرة صغيرة..»

وهنا واتتها الفكرة قالت لنفسها: «إن كل شيء يتوقف على المفتاح. فإذا كان المفتاح في القفل أمكن عمل شيء».. وكان الليل قد أرخى سدوله فنظرت من ثقب القفل، ووجدت المفتاح. ولكن لابد لها من شيء صلب تدفع به المفتاح ليسقط في الجانب الآخر. ولكن من أين لها ذلك الجسم الصلب، لقد أخذوا حقيبتها، وكان فيها قلم رصاص يصلح لهذه المهمة ومن حسن حظها أن وقع بصرها في تلك اللحظة على حذائها فخلعته، وانتزعت منه قطعة الجلد التي تغطي نعله من الداخل، وبرمتها حتى استدارت كالقلم. ثم وضعتها في ثقب القفل.. وأسقطت المفتاح في الجانب الآخر من الباب. ولم يحدث سقوط المفتاح صوتا يمكن ملاحظته.. فقد سقط على أرض من الطين. قالت لنفسها وقلبها يركض بين ضلوعها: «يجب أن أعمل بسرعة قبل أن يسود الظلام فلا أرى شيئا..» وتناولت الإناء.. وسكبت بعض الماء عند عتبة الباب، واستعانت بالملعقة في حفر الأرض تحت الباب، حتى أحدثت فجوة دست فيها ذراعها والتقطت المفتاح..

وكفت عن الحركة لحظة لتلتقط أنفاسها، ثم وضعت المفتاح في القفل بهدوء، وأدارته.. ففتح الباب.. وأصاخت السمع، ولكنها لم تسمع سوى نباح الكلاب.

وغادرت سجنها لتجد نفسها في غرفة أخرى كان بابها مفتوحا.. فاطلت من الباب ورأت درج السلم. يجب الآن أن تخلد إلى الهدوء حتى يهبط الظلام.. ويستغرق الجميع في النوم.. وحانت منها التفاتة فرأت في أحد أركان الغرفة عباءة سوداء قديمة.. فتناولتها.. وتدثرت بها لتخفي ثيابها وشخصيتها.

وانتظرت طويلا حتى انتصف الليل، فتسللت إلى الخارج وأوصدت باب غرفتها وتركت المفتاح في القفل، وهبطت السلم ببطء وبغير جلبة.. ومرت بغرفة ينبعث منها غطيط، لعله غطيط الحارس وما هي إلا لحظة حتى كانت تعبر الحديقة وتنطلق بعيدا عن سجنها. وأطلقت ساقيها للريح في طريق وعر لا تعرف إلى أين يؤدي. كان كل همها أن تبتعد عن القرية وعن سجانيها. وبعد أن تقطعت أنفاسها، وأحست بأنها أصبحت في مأمن من المطاردة، بدأت تتمهل في سيرها، وتفكر فيما ينبغي عليها أن تفعله.

وبزغ الفجر أخيرا فصعدت تلاً صادفها، ووقفت على قمته وأجالت البصر حولها.. وراعها منظر الصحراء في الشفق، وجمال الكون في ضوء النهار المنبثق، وأحست بالخوف والرهبة من السكون والفراغ اللذين يحيطان بها، وهمت في لحظة ما بأن تعود أدراجها لعلها تلتقي بإنسان.. أي إنسان!!

ولكنها سرعان ما تمالكت نفسها واستردت رباطة جاشها.. حينما فكرت مليًّا في أمرها.. أدركت أنها لم تنج تماما من أعدائها، وأن المسافة التي قطعتها سيراً على قدميها في الظلام، يستطيعون هم في وضح النهار أن يقطعوها بالسيارة في دقائق..

وكان التعب قد برح بها، فالتفت جيدا بالعباءة وأرختها على وجهها لكي تبدو كالبدويات، وجلست على قمة التل طلبا للراحة وترقبا للطريق.. حتى إذا رأت سيارة مقبلة سارعت إلى اتخاذ الإجراءات التي تناسب الموقف. وغلبها التعب فاستغرقت في النوم وعندما استيقظت كانت الشمس تسطع في كبد السماء..

وشعرت بالظمأ فبللت شفتيها الجافتين بلسانها. وعندئذ طرق أذنيها صوت محرك سيارة، فنظرت حولها في كل اتجاه.. ورأت السيارة من بعيد نقطة سوداء في

بحر الرمال. ولم تكن السيارة قادمة من ناحية القرية، ولكن أكبر الظن أنها كانت تقصد إليها..

واختفت السيارة وراء نشز من الأرض، ثم عادت إلى الظهور، واقتربت من التل الذي تقف "**فيكتوريا**" على قمته فتبينت "**فيكتوريا**" أن سائق السيارة رجل عربي، وأن شخصا آخر يجلس بجواره ويبدو أنه أوربي. وترددت "**فيكتوريا**" بين أن تسارع إلى السيارة فتحتمي براكبيها، أو أن تتوارى خوفا من أن يكونا من أعدائها..

وكانت السيارة تتقدم في ممر مطروق.. ولكنها لم تلبث أن غيرت اتجاهها فجأة. فخرجت من الممر وانحرفت نحو التل، حيث كانت "**فيكتوريا**". ولا شك في أن الرجلين قد أبصراها.. وبلا تردد، انبطحت على الأرض وحبست أنفاسها وبعد لحظة، توقف محرك السيارة، فسمعت الفتاة كلاما باللغة العربية. ثم ساد الصمت.. وجازفت "**فيكتوريا**" ورفعت راسها بحذر، فرأت الرجل الأوربي يصعد التل ويتوقف بين الفينة والأخرى لالتقاط شيء. وكان من الواضح أنه لا يعلم بوجودها. ولا يهتم بأمرها وكان واضحًا كذلك أنه إنجليزي فتنفست الصعداء.. ونهضت واقفة.. وأسرعت إلى مقابلته وهي تقول:

– ليتك تعلم كم أنا سعيدة بقدومك. فرفع الرجل رأسه في دهشة وهتف:

– ماذا تصنعين هنا بحق السماء! ولكن هل أنت إنجليزية؟ فانفجرت ضاحكة وقالت وهي تتخلص من عباءتها:

– نعم. فهل تستطيع الذهاب بي إلى "**بغداد**"؟

– أنا قادم منها.. ولكن ماذا تفعلين هنا في قلب الصحراء؟

– لقد خدرت واختطفت، وعندما أفقت، وجدت أنني سجينة في قرية هناك..

وأشارت بإصبعها نحو القرية: فقال الشاب:

– في قرية "**مندلي**"؟

– ربما كان هذا اسمها.. إنني فررت منها تحت جنح الظلام، وقضيت الليل كله هائمة على وجهي في الصحراء.. وتواريت عندما رأيت السيارة خوفًا من أن تكون

من الأعداء. وأصغى إليها الرجل في هدوء. كان طويل القامة، أشقر الشعر، لا تتجاوز سنه الخامسة والثلاثين.

ونظر إليها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، ثم قلب شفته. وبدا عليه كأنه لا يصدق كلمة واحدة مما سمع.. ولاحظت "**فيكتوريا**" ذلك وصاحت في غضب:

– تلك هي الحقيقة!!

– لكنها حقيقة أغرب من الخيال.. فاسقط في يد الفتاة لطالما كذبت فصدقها الناس. أما الآن وهي لا تذكر إلا الحقيقة فإن الرجل لا يريد أن يصدقها. قالت:

– الشيء المؤكد. هو أنني سأموت ظمأ إذا لم تسعفني بجرعة ماء.. سأموت ظمأ كذلك إذا أنت تركتني هنا.

فقال الغريب في هدوء:

– ليس من المألوف أن تهيم إنجليزية على وجهها في الصحراء. إن شفتيك جافتان فعلا.. ثم نادى سائق السيارة بقوله:

– يا "**عبد الله**".

– نعم يا سيدي.

واقترب السائق من سيده، فأصدر هذا أمرا باللغة العربية، وأسرع السائق إلى السيارة وعاد بزجاجة ماء وكوب. وشربت "**فيكتوريا**" حتى ارتوت وقالت:

– أشعر الآن بأنني أحسن حالاً. ورأى الإنجليزي أن الوقت قد حان ليقدم نفسه فقال:

– أنا أدعى "**ريتشارد بيكر**".

– وأنا "**فيكتوريا جونز**".. وأرادت أن تثير اهتمام محدثها فاستطردت قائلة:

–"**فيكتوريا بونسفوت جونز**". وقد جئت إلى "**بغداد**" للحاق بعمي الدكتور "**بونسفوت جونز**". رئيس بعثة الآثار. فهتف الشاب وهو ينظر إليها في دهشة:

– يا لها من مصادفة عجيبة! أنا أيضا في طريقي لمقابلته، إنه في مكان يبعد عن هنا نحو أربعة وعشرين كيلومترا.

فانهارت "**فيكتوريا**" ولم تقو على الكلام. وتبعته إلى السيارة دون مناقشة. قال

لها بعد أن جلست في المقعد الخلفي:

– أعتقد أنك تخصصت في علم الأجناس البشرية، لقد قيل لي إنك ستأتين، ولكني لم أظن أنك ستأتين بهذه السرعة. وأخرج من جيبه قطعا من الخزف التقطها من التل وقال:

– إنه تل عجيب مليء بآثار الأقدمين. ولكن كل ما به من بقايا الأواني الخزفية يرجع عهده إلى الآشوريين.

وابتسم واستطرد قائلا:

– يسرني أنك على الرغم من متاعبك، قد ساقتك هوايتك للآثار القديمة إلى هذا التل.

ولكن "**فيكتوريا**" لزمت الصمت ولم تجب. كانت تفكر في موقفها. لا شك في أن أمرها سيفتضح حالما تصل إلى مقر البعثة.. وراودتها فكرة الاعتراف بالحقيقة فوراً. ولكنها خشيت أن يتركها "**ريتشارد بيكر**" في الصحراء، وآثرت أن تعترف للدكتور "**بونسفوت**" شخصيا على الرغم من أنها لم يسبق لها أن رأته، أما "**ريتشارد بيكر**" هذا فإنه لن يصدقها حتى ولو قالت الحقيقة. وكان "**بيكر**" قد جلس بجوارالسائق فتحول إليها وقال:

– اطمئني.. فلن أعود بك إلى "**مندلي**".

انحرفت السيارة عن الممر المطروق، وبدأت تشق طريقها في الصحراء.. وكان "**بيكر**" يصدر تعليماته للسائق بالاتجاه يمينا أو يسارا. مسترشدا في ذلك بآثار لا تكاد ترى لعجلات سيارة سلكت الطريق من قبل.

ومرت السيارة بعربيين يحمل أحدهما منضدة صغيرة، ويحمل الآخر صندوقا متوسط الحجم فاستوقفهما "**بيكر**". واغتبط الرجلان بذلك... وهرولا إليه، وتقبلا شاكرين لفافات التبغ التي قدمها إليهما.

والتفت "**بيكر**" إلى "**فيكتوريا**" وسألها:

– هل تحبين السينما؟

– بالتأكيد..

– غادري السيارة إذن وستشاهدين السينما. فأطاعت وهي مشدوهة، بينما وضع العربي المنضدة على الرمال ، ووضع زميله الصندوق.. ونظرت من خلال عدسة بجدار الصندوق. وشرع أحد الرجلين في إدارة "مانيفيلا" متصلة بالصندوق بينما راح الآخر يتكلم بعبارات مبهمة. فقالت "**فيكتوريا**" تحادث "**بيكر**":

– ماذا يقول هذا الرجل؟ فأجاب "**بيكر**":

– إنه يشرح الصور باللغة العربية، وسأقوم بالترجمة الفورية وبدأ الترجمة، فقال:

– تعال وانظر عجائب الدنيا منذ بدء الخليقة حتى وقتنا هذا.. ورأت "**فيكتوريا**" من خلال العدسة صورة مرسومة بطريقة بدائية، تمثل الزنوج وهم يعملون في حقول القطن. وقال "**بيكر**" يترجم كلمات العربي:

– الحياة في "**أمريكا**". وتغيرت الصورة:

– زوجة ملك العالم الغربي تصفف شعرها. وتعاقبت الصور، برج "**إيفل**".. البرنس "**ألبرت**"، شواطئ "**النرويج**"، الانزلاق على الجليد في "**سويسرا**".. وقال "**بيكر**" يترجم كلام العربي:

– قد عرضنا عليك أعجب ما في الدنيا.. ونرجو أن يكون ما شاهدته قد حاز رضاك. ونهضت "**فيكتوريا**" وهي تقول:

– هذا رائع حقًّا. ومنح "**بيكر**" العربيين بعض النقود، وتبادل معهما حديثا طويلا باللغة العربية، ثم انصرف الرجلان فقالت "**فيكتوريا**":

– إلى أين يقصدان؟ فأجاب "**بيكر**":

– إلى كل مكان، لقد رأيتهما لأول مرة في شرق "**الأردن**"، وكانا قادمين من البحر "**الميت**" وهما يقصدان الآن "**كربلاء**" وهما عادة يجتازان الممرات غير المطروقة لزيارة القرى النائية البعيدة عن المدنية والحضارة.

– لا شك في أنهما يلتقيان بين وقت وآخر بمن يصطحبهما معه في سيارته فيوفر عليهما مشقة الطريق. فأجاب "**بيكر**" وهو يضحك:

– إنك تفكرين بالأسلوب الأوربي. إن الناس هنا لا يتعجلون الأمور، والوقت بالنسبة إليهم لا يعني شيئا. ومضت السيارة في طريقها، وبعد فترة قصيرة قال "**بيكر**":

– لقد اقتربنا.. فنظرت "**فيكتوريا**" أمامها، ورأت تلاًّ ينهض عند سفحه بيت منخفض مشيد بالطوب..

ووقفت السيارة أخيرا أمام البيت، وهرول بعض الخدم في جلابيبهم البيضاء لتحية القادمين والترحيب بهم. فتبادل معهم "**بيكر**" بعض العبارات ثم قال يحدث "**فيكتوريا**":

– يُخيَّل إليَّ أنهم لم يتوقعوا قدومك بهذه السرعة، ولكن لا أهمية لذلك.. إنهم سيعدون لك فراشا وماء ساخنا للاغتسال، وفي استطاعتك أن تنعمي ببعض الراحة ريثما يحضر الدكتور "**بونسفوت جونز**". إنه الآن في التل وسألحق به.. وسيعنى بك "**إبراهيم**".

وتقدم المدعو "**إبراهيم**" وعلى شفتيه ابتسامة عريضة، اقتادها إلى داخل البيت، فمرت بقاعة فسيحة انتشرت فيها بعض الموائد القديمة، ثم بدهليز طويل ينتهي بباب يؤدي إلى فناء صغير. وفي الجانب الآخر من الفناء غرفة صغيرة ينفذ إليها الضوء من كوة في الجدار، وأجالت "**فيكتوريا**" البصر في جوانب الغرفة ورأت فراشا، ودولابا سيئي الصنع، ومائدة، ومقعدا، وإناء ماء. وبعد قليل حمل إليها "**إبراهيم**" – وهو يبتسم – وعاء مليئا بالماء الدافئ.. ومرآة صغيرة ثبتها بمسمار في الجدار.

وأحست "**فيكتوريا**" بالارتياح إذ سيتاح لها أن تغتسل وتتزين وتصفف شعرها. ونظرت في المرآة.. فذهلت. لم تعرف نفسها.. كانت قسمات وجهها على حالها لم تتغير.. أما شعرها فقد أصبح لونه ذهبيا حائلا..

الفصل التاسع عشر

ذهب "**بيكر**" للقاء الدكتور "**بونسفوت جونز**"، فوجد العالم الأثري الكبير يعمل بنفسه في خندق بالحفائر، وبيده معول يدق به أحد الجدر في حرص وحذر شديدين. ولم يدهش الرجل عندما رأى مساعده الشاب. قال ببساطة:

– أهذا أنت يا فتى؟ لا أعلم لماذا كنت أعتقد أنك لن تعود قبل يوم الثلاثاء..

– هل أنت واثق؟ ولم ينتظر العالم الأثري الشيخ الإجابة ومضى يقول:

– اقترب يا فتى؛ لأنني أريد أن أعرف رأيك في هذا.. لقد بدأ الجدار يظهر على الرغم من أننا لم نحفر أكثر من مترين، ويُخيَّل إليَّ أنني أرى عليه آثار نقوش. تعال وانظر..

فوثب "**بيكر**" إلى الخندق.. وبدأ بين الرجلين حوار فني بحت استغرق زهاء ربع الساعة وأخيراً قال "**بيكر**":

– الواقع، أنني عدت ومعي إحدى الفتيات.

– إحدى الفتيات؟ ومن هي؟

– تقول إنها ابنة أخيك.

– ابنة أخي؟ وحاول الرجل أن ينسى حفرياته ويركز تفكيره ثم قال:

– لا أذكر أن لي ابنة أخ.. قال ذلك بلهجة تدل على أنه غير واثق. ربما كانت له ابنة أخ غابت عن ذاكرته.. قال "**بيكر**":

– يبدو مما فهمته أنها جاءت لتعمل معنا. فانبسطت أسارير عالم الآثار وهتف:

– آه! تذكرت.. لابد أنها "**فيرونيكا**".

– يخيل إليّ أنها قالت إن اسمها "**فيكتوريا**".

– نعم.. نعم.. "**فيكتوريا**". لقد كتب لي "**إيمرسون**" بشأنها.. "**إيمرسون**"، الأستاذ في جامعة "كمبردج".. يبدو أنها فتاة موهوبة تخصصت في علم الأجناس البشرية.. ولست أدري في الواقع معنى اهتمام إنسان بعلم كهذا.

– ولكن ألم تكن في انتظار فتاة تخصصت في هذا العلم؟

– نعم. ولكنني لم أكن أتوقع قدومها بهذه السرعة. فليس لدينا الآن شيء في دائرة تخصصها يمكننا أن نقدمه إليها.. فهمت من رسالة "**إيمرسون**" أنها لن تحضر قبل أسبوعين.. ولكن يبدو أنني قرأت الرسالة بسرعة.. ثم ضاعت فلم أُلمَّ بمضمونها تماما.. وعلى كل حال يمكننا الإفادة من الفتاة في تسجيل قطع الخزف التي عثرنا عليها وهي كثيرة ومن عصور مختلفة.

– هذه الفتاة.. أليست على شيء من غرابة الأطوار؟

– غرابة الأطوار؟! ماذا تعني؟

– ألم تصب مثلاً بمرض عصبي.. أو بشيء من هذا القبيل؟

– قال لي "**إيمرسون**" في رسالته إنها أرهقت نفسها في الاستعداد للامتحان النهائي.. لكنه لم يذكر شيئًا عن إصابتها بمرض ما.. لماذا تسأل؟

– لأنني التقطتها من مكان مهجور في الصحراء.. كانت هناك وحدها.. فوق ذلك التل الذي توقفت أنت عنده في العام الماضي. وقد قصت عليّ قصة عجيبة. قالت إنها ذهبت إلى صالون للحلاقة فخدروها هناك، ونقلوها إلى قرية "**مندلي**"، وحبسوها في منزل هناك. ولكنها استطاعت الفرار في منتصف الليل.. الواقع أنني لم أسمع في حياتي قصة أبعد عن التصديق كهذه القصة التي روتها لي.

– فهز الدكتور "**بونسفوت**" رأسه موافقا فقال:

– حقًّا. إنها لا تصدق. خصوصا وأن الأمن يسود كل مكان في هذه البلاد.

– وهذا رأيي أيضا، لقد كنت واثقا بأن القصة كلها محض اختلاق، ولذلك أتساءل عما إذا كانت هذه الفتاة مصابة بمرض عصبي أو نفسي.. وهل هي من طراز الفتيات اللائي يزعمن أن القس طارحهن الحب أو أن الطبيب اعتدى عليهن؟ فلو كانت كذلك لأثارت لنا متاعب نحن في غنى عنها. فقال "**بونسفوت**" بلهجة المتفائل:

– اطمئن، فلسوف تهدأ.. أين هي الآن؟

– في غرفة الضيافة. ثم استطرد بعد تردد:

– لقد جاءت بدون بيجامة..

– أحقًّا تقول؟ لا شك في أنها تتوقع أن أعيرها بعض ثيابي.. إنني لا أملك سوى بيجامتين إحداهما مهلهلة. يا إلهي!! ما أعجب فتيات هذا الزمن!

وجدت "**فيكتوريا**" الدكتور "**بونسفوت**" يختلف تماما عما تخيلته.. رأت أمامها رجلاً قصير القامة، يميل إلى البدانة، نصف أصلع. ولشد ما كانت دهشتها حين رأته يبسط لها يديه ويقول:

– طاب يومك يا "**فيرونيكا**".. أعني يا "**فيكتوريا**".. إني سعيد برؤيتك.

ومندهش.. فقد كنت أتوقع حضورك الشهر القادم. ولكني سعيد بوجودك معنا على كل حال. ألا يزال "**إيمرسون**" يعاني ضيق التنفس؟ فأجابت "**فيكتوريا**" بصوت حاولت أن يبدو ثابتا:

– إنه أحسن حالا.

– إنه يبالغ في تغطية عنقه. وقد قلت له ذلك مرارا، كل الجامعيين يسرفون في قلقهم على صحتهم ولكن لنتحدث عنك.. قال لي "**ريتشارد**" إنك فقدت أمتعتك.. فماذا ستفعلين؟ إننا لن نستطيع إرسال السيارة إلى المدينة قبل ثمانية أيام. ثم ابتسم وقال:

– إنني و"**ريتشارد**" لا نملك شيئا يستحق الذكر، كل ما نستطيع إعارتك إياه هو فرجون "فرشاة للأسنان" وحذاء وبعض المناديل. فابتسمت "**فيكتوريا**" بدورها وقالت:

– اطمئن، سأتصرف..

– وثمة شيء آخر.. إننا لم نكتشف بعد مقابر تساعدك على ممارسة اختصاصك كباحثة في علم الأجناس البشرية.. بيد أن لدينا أعمالاً كثيرة يمكن أن تشغل كل وقتك.. هل تجيدين التصوير الفوتوغرافي؟

– نعم..

– هذا حسن.. من المحقق أننا سنفيد منك كثيراً.

وبعد الغداء ذهب بها "**إبراهيم**" إلى مخزن مقتنيات البعثة، فأخذت مما فيه من أدوات ما يمكن أن يفيدها شخصيا، ثم عادت إلى غرفتها وتمددت في فراشها وراجت ترتب أفكارها . لم يكن هناك شك في أنهم يظنونها فتاة أخرى.. تدعى "**فيرونيكا**" تعمل باحثة في علم الأجناس البشرية.. وكان الدكتور "**بونسفوت**" ينتظر حضورها.

ولكن ما هو علم الأجناس البشرية؟ لا بأس.. إنها سوف تبحث في أحد القواميس.. للتزود بالمعرفة.. إن "**فيرونيكا**" هذه لا ينتظر قدومها قبل ثمانية أيام.. إذن فهي تستطيع أن تعيش هذه الأيام الثمانية في طمأنينة.

إن الدكتور "**بونسفوت جونز**" رجل طيب القلب، كثير النسيان، فليس ثمة خطر منه.. أما "**ريتشارد بيكر**" فإنه يختلف عن أستاذه، إنها لا تحب عجرفته.. ولا طريقته في الحملقة إليها كمن يريد أن يتغلغل في أعماقها ويعرف دخيلة نفسها.

إن من حسن الحظ أنها عملت وقتًا ما ككاتبة اختزال في معهد الآثار في "**لندن**" . فعرفت كثيراً من الاصطلاحات الأثرية التي تستطيع الآن استخدامها والتستر وراءها.

إن الراحة خلال الأيام الثمانية القادمة سوف تساعدها على التقاط أنفاسها وتحديد موقفها.. وفكرت في "**غصن الزيتون**" لا شك في أنهم يتساءلون هناك الآن عن مصيرها، أما أعداؤها فمن المؤكد أنهم سيظنون أنها ضلت طريقها في الصحراء وهلكت جوعًا وظمأ.. ولن يخطر في بالهم أنها انضمت إلى بعثة الدكتور "**بونسفوت**" في حفائر "**التل الأسود**" .

ومن المحزن أن يعتقد "**إدوارد**" مثل ذلك.. إنه لا يستطيع عمل شيء.. ولكنه إذا علم بطريقة أو بأخرى بأن لـ"**كاترين**" يدا فيما أصابها، فإنه سوف يظل نهبا للقلق ووخز الضمير؛ لأنه هو الذي ألح عليها في أن توطد صداقتها بهذه الفتاة.. على أنها ما لبثت أن ابتسمت حين تصورت دهشته عندما يرى شعرها الذهبي.. ولكن لماذا صبغوا شعرها؟ لابد أن لذلك سببًا.. ولكن ما هو؟

*****

ولم تلبث "**فيكتوريا**" خلال الأيام القلائل التالية أن اكتشفت أن الحياة مع بعثة أثرية لا تخلو من الطرافة والإثارة.. كانت تقضي كل أوقات فراغها في التهام الكتب المحفوظة في مكتبة البعثة. وكانت تقتصد في الكلام ما أمكنها الاقتصاد تجنبا للزلل. وتأقلمت مع حياتها الجديدة، كانت تستيقظ من نومها في وقت متأخر، وتتناول الفطور ثم تذهب إلى الحفائر للتصوير، أو ترتيب قطع الآثار وتنسيقها وفقا للعصور. وكان أكثر ما تخافه أن يكتشف "**بونسفوت**" مقبرة

ويطلب إليها فحص محتوياتها من هياكل وجماجم باعتبارها باحثة في علم الأجناس البشرية.. ولكنها قررت إذا حدث ذلك أن تتصنع المرض وتزعم أنها مريضة بالكلى.. ولكنها لم تضطر إلى ذلك.. فإن الدكتور "**بونسفوت**" لم يكتشف سوى جدر قصر قديم أخذت تظهر شيئًا فشيئًا وهو كشف شد اهتمامها بطريقة لم تتوقعها. ولاحظ "**بيكر**" حماستها فقال لها وهو يبتسم:

– لقد كنت متحمسا مثلك عندما اشتركتُ في أعمال الحفر لأول مرة.

– هل كان ذلك منذ وقت طويل؟

– منذ نحو خمسة عشر عاما.

– لابد أنك تعرف هذه البلاد جيدا.

– أعرف هذه البلاد وغيرها.. أعرف "**العراق**" "**وسوريا**" و"**إيران**".

– إن من يسمعك تتكلم العربية يظن أنك من أهل هذه البلاد.. إنه لا ينقصك سوى الثياب لتبدو عربيا. ولكنه هز رأسه وأجاب:

– لا أعتقد أن هناك إنجليزيا استطاع أن يقنع الآخرين بأنه عربي.

– هناك العقيد "لورنس"؟

– ربما، ولكنه لم يكن مقنعا، أنا شخصيا لم أعرف سوى رجل واحد أمكنه أن يتنكر في زي عربي حتى ظن العرب أنفسهم أنه واحد منهم..

لقد عرفت هذا الرجل وهو صبي.. إنه وُلد في الشرق وكان أبوه قنصلا لـ"**بريطانيا**" في "**كاشقار**"، فتعلم اللغات الشرقية بكل لهجاتها التي يجهلها الأوربيون وأعتقد أنه لن ينسى ما تعلم. واستطرد:

– لقد انقطعت صلتي به بعد أن تخرجنا في جامعة "**أيتون**".. كنا نسميه "الفقير" لأنه كان يقضي الساعات الطوال دون أن يحرك ساكنا أو ينطق بكلمة.

– أحقًّا؟!

– لم أعرفه في البداية، فقد كان متنكرا في زي عربي، في يده مسبحة وحول عنقه شملة "**كوفية**".. ولم ألقِ إليه بالا في البداية.. إلى أن لاحظت أن حبات المسبحة تسقط الواحدة بعد الأخرى في فترات منتظمة. وبالأسلوب الذي ترسل به

البرقيات بطريقة "**مورس**" وفهمت أن الرسالة موجهة إليّ..

– وكيف علمت ذلك؟

– كان يكرر اسمي، أو على الأصح لقبي ولقبه ويستنجد بي.

ثم نهض واقفًا وسار نحو الباب، وفي نفس اللحظة نهض رجل بدين يبدو كالوكلاء التجاريين، وأخرج مسدسا من جيبه وصوبه نحو صديقي، ولكنني ضربت ساعده بقوة، وبذلك نجا "**كارمايكل**".

– "**كارمايكل**"؟! نطقت "**فيكتوريا**" بهذا الاسم بلهجة غريبة جعلت "**بيكر**" يتحول إليها ويحملق إلى وجهها. قال:

– نعم.. ذلك اسمه.. هل تعرفينه؟ وتصورت "**فيكتوريا**" دهشته حين تقول له:

– نعم.. وقد مات في فراشي.. ولكنها أجابت:

– نعم.. كنت أعرفه..

– كنت تعرفينه؟ هل معنى ذلك أنه.. فأومأت برأسها وأجابت:

– نعم. إنه مات.

– متى؟

– منذ بضعة أيام.. في "**بغداد**".. في فندق "**تيو**".. واستطردت قائلة بسرعة:

– لم يذع نبأ موته.. ولا أحد يعلم به.. فساد صمت قصير، ثم قال "**بيكر**":

– ولكن كيف.. كيف علمت أنت؟

– لأنني اشتركت في الحادث مصادفة. فنظر إليها طويلا، وكأنه يطلب مزيدا من التفصيلات ولكنها قالت فجأة:

– في الجامعة.. هل كانوا يلقبونك باسم "**لوسيفر**"؟

– "**لوسيفر**"؟! كلا كانوا يلقبونني باسم "البومة"؛ لأني كنت أستعمل عوينات كبيرة.

– ألا تعرف في "**البصرة**" شخصا كان يطلق عليه اسم "**لوسيفر**"؟ ففكر قليلاً وأجاب:

– كلا.. "**لوسيفر**" ابن الغجر.. الملاك الذي هوى.. لقد قرأت هذا الوصف لـ"**لوسيفر**" في إحدى القصائد.

– هل لك في أن تذكر لي بالتفصيل ما حدث في "**البصرة**"؟

– لقد ذكرته لك.

– أين وقع ذلك الحادث؟

– في قاعة الانتظار في القنصلية.. كنت قد ذهبت إلى هناك لمقابلة "**كلايتون**".

– من كان معك في قاعة الانتظار؟ "**كارمايكل**". وذلك الوكيل التجاري. ومن أيضًا؟

– شخصان لا أعرفهما.. أحدهما يبدو فرنسيا، والآخر يبدوا شيخا إيرانيا.

– وكيف هرب "**كارمايكل**"؟

– انطلق يعدو في دهليز يؤدي إلى مكتب القنصل ثم انحرف يسارا نحو باب يؤدي إلى الحديقة.

– أعرف موقع ذلك الباب قد قضيت فترة في القنصلية.. عقب رحيلك مباشرة.

– أحقًّا تقولين؟ هذا عجيب. وظل يتفرس فيها.. ولكنها صمدت لنظراته. وقالت:

– هل كان في القنصلية ضيوف يومئذ؟

– كان هناك شخص يدعى "**كروسبي**" يعمل في إحدى شركات البترول، وتذكرت "**فيكتوريا**" الكابتن "**كروسبي**"، وتساءلت هل يمكن أن يكون هو "**لوسيفر**"؟ قالت:

– سؤال أخير.. هل يذكرك اسم "**لافارج**" بشيء، فكر "**بيكر**" طويلا وأجاب:

– كلا. هل هو اسم رجل أو امرأة؟

– لا أعلم.

وفي المساء، بعد أن أوت "**فيكتوريا**" إلى فراشها، طلب "**بيكر**" من الدكتور "**بونسفوت**" أن يسمح له بإلقاء نظرة على الرسالة التي جاءته من "**إيمرسون**". وقال موضحًا:

– أريد أن أعرف بالضبط ماذا قال في رسالته عن هذه الفتاة؟ فأجاب العالم الشيخ:

– المشكلة هي أنني لا أعرف أين وضعت الرسالة « أنا واثق بأنني أحتفظ بها في مكان ما، فقد كتبت على ظهرها بعض ملاحظات خاصة بالعمل.. ولكني أذكر تماما أن "**إيمرسون**" أطرى "**فيرونيكا**" وامتدحها، وأنا شخصيا أجدها فتاة ظريفة.. لقد فقدت أمتعتها ومع ذلك لم تثر أية ضجة. أية فتاة أخرى كان يمكن أن تطلب بإصرار أن نعيدها إلى "**بغداد**". أما هي فإنها تقبلت خسارتها بروح رياضية.. وهذا جميل منها.. ولكن كيف فقدت أمتعتها؟

– قالت إنهم خدروها واختطفوها.. وسجنوها في أحد البيوت.

– آه! هذا صحيح.. إنك ذكرت لي هذه القصة من قبل.

الفصل العشرون

بعد ظهر اليوم التالي، سمع الدكتور "**بونسفوت جونز**" صوت محرك سيارة فنظر إلى الصحراء ورأى سيارة قادمة من بعيد فصاح في ضيق:

– ها قد جاء زوار جدد.. كأنما ليس لدي ما أفعله سوى استقبال هؤلاء الحمقى، وأشرح آخر اكتشافاتي في الحفائر. فقال "**بيكر**":

– هل نسيت "**فيكتوريا**"؟ إنها تستطيع أن تحل محلك في هذه المهمة. ولديها من المعلومات ما يؤهلها للقيام بدور الدليل، أليس كذلك يا "**فيكتوريا**"؟ فأجابت الفتاة:

– إن معلوماتي قليلة وأخشى التورط في خطأ. فقال "**بيكر**":

– إنك شديدة التواضع. فالبيانات التي أدليت بها إليّ صباح اليوم عن طريقة بناء الجدار الذي اكتشفناه في الحفائر لا تصدر إلا عن أثري ضليع، أو عن مهندس متمرس. فشعرت "**فيكتوريا**" بالدم يصبغ وجنتيها وأجابت:

– مهما يكن من أمر فسأبذل قصارى جهدي.

والواقع أنها هي نفسها كانت في دهشة من الجهود التي بذلتها خلال الأيام الخمسة التي قضتها مع البعثة، حتى استطاعت تصنيف قطع الخزف وتحديد العصر الذي تنتمي إليه كل منها، وتصور نوع الحياة اليومية التي كان يحياها الناس منذ ثلاثين قرنا، وأذهلها أن علماء الآثار لا يهتمون بقصور الملوك والمعابد فحسب كما كانت تتصور، وإنما يهتمون كذلك بحياة الشعوب في مختلف العصور.

كانت "**فيكتوريا**" تفكر في كل ذلك وهي في طريقها مع "**بيكر**" لاستقبال الزائرين اللذين جاءا بالسيارة. كانا من الفرنسيين الذين يهتمون بالحضارات القديمة، وقد جابا أنحاء "**سوريا**" و"**العراق**"، فرحب بهما "**بيكر**" وقدم إليهما "**فيكتوريا**" ورافقتهما الفتاة إلى الحفائر، ورددت كالببغاء كل ما سمعته من إيضاحات، وشفعتها بإضافات من صنع خيالها لتضفي عليها شيئًا من الإثارة.

وبعد فترة من الوقت، اعتذر أحد الرجلين بمرضه، ورجاها أن تسمح له بالتماس بعض الراحة في البيت، وكانت قد لاحظت أنه ممتقع الوجه ولا يكاد يلقي بالاً إلى حديثها. ولما انصرف، قال عنه زميله إنه يشعر بآلام في معدته، وإنه اقترح عليه أن يرجئ الزيارة إلى يوم آخر ولكنه أصر.

وعندما فرغ الفرنسي من ارتياد الحفائر. دعاه الدكتور "**بونسفوت جونز**" إلى تناول الشاي ولكنه اعتذر بأنه وزميله يجب أن يبدآ رحلة العودة قبل الغروب حتى لا يضلا الطريق في الصحراء. وعلى الأثر، استقل الفرنسيان سيارتهما وانطلقا بها..

وبعد تناول الشاي. ذهب "**بيكر**" إلى غرفته لكتابة بعض الرسائل التي اعتزم أن يودعها صندوق البريد في "**بغداد**" حين يذهب إليها في اليوم التالي. ولكنه ما كاد يفتح أحد أدراج مكتبه حتى أدرك أن هناك من عبث بأوراقه وأمتعته.. ولم يخامره شك في أن الفاعل هو ذلك الفرنسي الذي تصنع المرض. بيد أنه اكتشف أن شيئا لم يسرق.. حتى النقود كانت كلها في مكانها.. إذن؟

وخطر له خاطر مزعج، فهرول إلى القاعة التي أطلق عليها أستاذه اسم قاعة "الأنتيكات"، ولكنه وجد "الكنوز" الأثرية لم تمس، ولم يفقد منها شيء. عاد إلى

البهو ووجد "**فيكتوريا**" تقرأ كتابا. فقال لها:

– لقد قام شخص ما بتفتيش غرفتي.

– من تعني بكلمة "شخص ما"؟

– ألم تفعلي أنت ذلك؟ فقالت مستنكرة:

– أنا؟ كلا بالتأكيد. ماذا يحملني على تفتيش غرفتك؟

– إذن لابد أن يكون الفاعل أحد الزائرين الفرنسيين، وبالتحديد.. ذلك الذي تصنع المرض.

– هل سرق شيئا؟

– كلا..

– إذن لماذا بحق السماء؟ فقاطعها بقوله:

– ظننتك تعلمين.

– أنا؟

– إن المغامرة التي رويتها لي والأخطار التي أحاطت بك..

– آه! أتعني ذلك؟ وفكرت قليلاً ثم قالت:

– ولكن لماذا يفتشون غرفتك؟ وأنت لا شان لك بـ..

– بماذا؟ ولكنها لم تتم عبارتها، واستغرقت في التفكير، ولم يلح عليها "**بيكر**" بالسؤال وقنع بان استفسر منها عن الكتاب الذي تقرأه، فأجابت:

– لا يوجد في مكتبة البعثة من القصص إلا القليل.. إنني أقرأ "قصة مدينتين".

– ألم يسبق لك أن قرأتها؟

– كلا.. كنت أظن أن "تشارلز ديكنز" كاتب ممل. ولكنني وجدت هذه القصة طريفة ومثيرة.

– وأين أنت منها الآن؟ وأطل من فوق كتفها وقرأ: «أخذت المرأة التي تشتغل بالتريكو تحصي الرؤوس التي تفصلها المقصلة». فقالت "**فيكتوريا**":

– إنها امرأة مرعبة..

– من؟ السيدة "**لافارج**"؟ إنها شخصية عجيبة.. وعلى الرغم من أنني لا أعرف

"**التريكو**" .. إلا أنني أرتاب في أن أحدا يستطيع تسجيل قائمة أسماء بواسطة الإبرة والتريكو.

– أظن أن هذا ممكن.. "غرزة" إلى اليمين وغرزة إلى اليسار وكفت عن الكلام فجأة، وانبلج في ذهنها خاطر تذكرت الرجل الذي اقتحم غرفتها وهو جريح.. والشملة الحمراء التي كان يحيط بها عنقه.. والتي وجدتها هي بعد ذلك ودستها بين أمتعتها. ثم نسيتها تماما.. كانت الشملة مصنوعة من التريكو.. ولم تكن آخر كلمة نطق بها الرجل هي "**لافارج**" وإنما "**ديفارج**" . لا شك في أنه أراد الإشارة إلى ما كانت تفعله هذه المرأة وإلى أنه قد سجل شيئا في الشملة "**الكوفية**" . ورآها "**بيكر**" ساهمة مستغرقة في التفكير فقال لها:

– ماذا دهاك؟

– لا شيء. كنت أفكر في أمر.

كانت تفكر في أنها ستعود غدا إلى "**بغداد**" ، بعد أيام سعيدة قضتها مع البعثة. نعمت فيها بالراحة والطمأنينة في أعقاب المغامرات الرهيبة التي خاضتها. شق عليها أن تعود إلى خدمة السيد "**داكن**" .. وإلى العمل في "**غصن الزيتون**" كلا.. إنها ستذهب إلى غرفتها، وتأتي بتلك الشملة وتقدمها إلى السيد "**داكن**" . وبذلك تنتهي مهمتها. ورفعت رأسها، ونظرت إلى "**بيكر**" ، ووجدته يتفرس فيها.. قال لها فجأة:

– حدثيني يا "**فيكتوريا**" .. ما اسمك حقًّا؟ إنك لست "**فيرونيكا سافيل**" التي أوصى بها الدكتور "**إيمرسون**" ، لقد نصبت لك بضعة فخاخ فسقطت فيها دون أي تحفظ.

– إنني ذكرت لك اسمي عندما تقابلنا لأول مرة اسمي "**فيكتوريا جونز**" .

– هل أنت ابنة أخ الدكتور "**بونسفوت جونز**" ؟

– كلا، لقد رويت لك ما حدث لي، ولكنك لم تصدقني، ولذلك زعمت أنني ابنة أخ الدكتور "**بونسفوت جونز**" حتى أحملك على احترامي والكف عن السخرية مني، ومن قصتي. إن اسم الدكتور له وزنه واحترامه ولكني لم أكن أتوقع

أنك ستأتي بي إليه..

– هل تريدين أن تقولي إن القصة التي سردتها حقيقية؟

– إنها حقيقية..

– وهل ما رويت عن "**كارمايكل**" صحيح؟

– لقد رأيت مصرعه وكان ذلك هو بداية القصة كلها.

– إذن اسردي عليّ كل شيء بالتفصيل.

– لا أعلم إذا كنت أستطيع الوثوق بك!!

– إنك تقلبين الأوضاع. هل نسيت أن هناك أكثر من سبب يحملني على الاعتقاد بأنك ما جئت إلى هنا منتحلة من الأسماء والصفات ما ليس لك إلا لاستقاء بعض المعلومات مني؟

– بل ربما كان ذلك هو ما أنت بسبيله الآن..

– هل تعني أن لديك عن "**كارمايكل**" معلومات تهمهم؟

– تهمهم؟ من هم؟

أظن أنني يجب أن أقص عليك القصة كلها من البداية، فإذا كنت من أعدائي فأنت تعرف كل شيء فعلاً.. وما سأقصه عليك لن يغير شيئا..

*****

وسردت عليه القصة بحذافيرها، ولم تخفِ عنه شيئًا سوى موضوع الشملة الحمراء، وما استنتجته بشأنها وسألها "**بيكر**" بعد أن فرغت من قصتها:

– وهل تعتقدين أن الدكتور "**راتبون**" يلعب دوراً في هذه المؤامرة الرهيبة؟ لا شك في أنك لا تجهلين أنه عالم كبير، وشخصية لها وزنها، وأنه يتلقى معونات من شتى أنحاء العالم..

– إن تنفيذ المؤامرات يتطلب شخصا مثله.

– أنا شخصيا أعتقد أنه مهرج..

– ذلك قناع بارع يحجب حقيقته.

– ربما.. ولكن من هو "**لافارج**" الذي سألتني عنه؟

– لا أعلم.. إنه بالنسبة إليّ مجرد اسم.. مثله في ذلك مثل "**هيلين شيل**".

– "**هيلين شيل**"؟ لم أسمع قط شيئًا عنها.

– إنها تلعب دورا مهما.. ولكن هذا هو ما أجهله.

– هل لك أن تذكري لي مرة أخرى اسم الرجل الذي أقحمك في هذه المغامرة؟

– اسمه "**داكن**".. وأعتقد أنه يعمل في إحدى شركات البترول...

– هل هو مهلهل الثياب ويبدو متبلدا خاملا لا يصلح للقيام بأي عمل مهم..

– نعم.. ولكن لا ينبغي أن تخدع بالمظاهر. فقلب "**بيكر**" شفته وهز رأسه وقال:

– كأنني أقرأ قصة بوليسية.. ولكن "**فيكتوريا**" كانت تفكر في مشكلة أخرى.. قالت:

– ماذا ينبغي أن تقول للدكتور "**بونسفوت جونز**"، يجب أن تصارحه بالحقيقة.

– لن تقول له شيئا.. ما الفائدة؟

الفصل الحادي والعشرون

شعرت "**فيكتوريا**" بغصة وهي تلقي نظرة أخيرة على "**التل الأسود**" قبل أن تنطلق بها السيارة إلى "**بغداد**". وبعد نحو ثلاث ساعات، وصلت السيارة إلى "**بغداد**". وهناك انطلق السائق والطاهي لشراء ما تحتاج إليه البعثة من مؤن، وقصدت "**فيكتوريا**" و"**بيكر**" إلى فندق "**تيو**"..

وبينما كان "**بيكر**" يتسلم الرسائل الخاصة به وبأستاذه، أقبل "**ماركوس تيو**" وعلى شفتيه ابتسامة عريضة، فرحب بـ"**فيكتوريا**" ترحيبا حارا، وعتب عليها أنها لم تحضر إلى الفندق منذ وقت طويل، وأدركت "**فيكتوريا**" أنه لا يعلم شيئا عن اختطافها، وخلصت من ذلك إلى أن "**داكن**" لابد أن يكون قد نصح "**إدوارد**"

بعدم إبلاغ البوليس. وسألت "**فيكتوريا**" صاحب الفندق عما إذا كان السيد "**داكن**" موجودا في "**بغداد**"، فأجابها بقوله:

– لقد رأيناه أول أمس، ونحن الآن في انتظار صديقه الكابتن "**كروسبي**" الذي سيعود اليوم من "كرمنشاه".

– هل تعرف أين يوجد مكتب السيد "**داكن**"؟

– بالتأكيد. ومن ذا الذي لا يعرف مقر شركة البترول العراقية – الإيرانية؟

– حسنًا.. سأذهب الآن بإحدى سيارات الأجرة لمقابلته، ولكني أخشى أن يضل السائق الطريق.

– اطمئني.. سأتولى بنفسي إرشاد السائق. واستقلت "**فيكتوريا**" إحدى سيارات الأجرة، وقالت تحدث "**ماركوس**":

– نسيت أن أقول لك إنني في حاجة إلى غرفة في فندقك..

– سأحجز لك أفخم غرفة.. وسأعد لك عشاء شهيا.

– وهل أستطيع أن أقترض منك بعض النقود؟

– إليك محفظتي أيتها العزيزة.. خذي منها ما تريدين.

❁❁❁❁❁

وبعد نحو خمس دقائق.. كانت "**فيكتوريا**" في مكتب السيد "**داكن**" في شركة البترول.. ونهض هذا لاستقبالها.. وهو يقول:

– الآنسة "**جونز**"؟ أليس كذلك؟ أحضر لنا قهوة يا "**عبد الله**". وما إن خرج الصبي العربي حتى قال "**داكن**" بصوت خافت:

– ما كان ينبغي أن تحضري إلى هنا.

– لم يسعني أن أفعل غير ذلك.. فإن لدي ما أريد أن أفضي به إليك قبل أن أقع في ورطة جديدة.

– وهل كنت في ورطة؟ ماذا حدث؟

– ألم يقل لك "**إدوارد**"؟

– لم يقل لي أحد شيئا.. وعاد الرجل إلى الجلوس أمام مكتبه وهو يقول:

– ماذا حدث؟ ثم أضاف بعد قليل:

– كنت أفضل أن يظل شعرك في لونه الطبيعي. فصمتت الفتاة ولم تجب.. ودخل "**عبد الله**" فوضع قدحي القهوة وانصرف، وحينئذ قال "**داكن**":

– في استطاعتك الآن أن تتكلمي فإن الجدر سميكة ولن يسمعنا أحد. وفي بساطة ووضوح. روت "**فيكتوريا**" قصة اختطافها وهروبها، وكيف وجدت الصلة بين "**تريكو**" السيدة "**لافارج**" وشملة "**كارمايكل**"..

وأصغى إليها "**داكن**" باهتمام شديد، وقال وعيناه تتألقان فرحا:

– هذه أول معلومات ذات قيمة تصل إلينا.. ولكن أين توجد الشملة الآن؟

– بين أمتعتي.

– ألا يعلم بأمرها أحد؟

– كلا.. لسبب مؤكد هو أنني كنت قد نسيتها تماما..

– هذا حسن.. وعلى فرض أن بعضهم فتش حقائبك في أثناء غيابك فإن الشملةالقديمة لن تثير اهتمام أحد.. إن أول ما يجب عمله هو أن نسترد حقائبك.. أين تقيمين الآن؟

– لقد استأجرت غرفة في فندق "**تيو**"..

– أحسنت صنعا..

– هل تريدني أن أعود إلى "**غصن الزيتون**"؟

– هل أنت خائفة؟

– لا.. وسأعود إذا طلبت إلي ذلك..

– لا أظن أنه من الضروري أو من الحكمة أن تعودي إلى ذلك المعهد، ويخيل إليّ أنهم عرفوا حقيقة أمرك.. وإذا ذهبت فلن تظفري بشيء جديد.. ومن يدري فقد تعودين من هناك بشعر أحمر..

– لا أدري حقًّا لماذا صبغوا شعري.. هل لديك أية فكرة؟

– يوجد تعليل واحد.. مؤلم.. هو أنهم أرادوا إخفاء معالم جثتك..

– إذا كان في نيتهم قتلي . فلماذا لم يفعلوا ذلك في التو واللحظة؟

– هذا سؤال على جانب عظيم من الأهمية أيتها العزيزة، وحبذا لو كان في استطاعتي أن أرد عليه. وساد الصمت لحظة.. ثم قالت "**فيكتوريا**" فجأة:

– نسيت أن أقول لك شيئا مهما.. هل تذكر ما قلته لك يوما من أن شيئا في السيد "**روبرت كرفتون لي**" قد تغير؟

– نعم..

– هل كنت تعرف السيد "**روبرت**" شخصيا؟

– كلا. لم أقابله إلا هنا في "**بغداد**"..

– إن الرجل الذي قابلته هنا لم يكن السيد "**روبرت**". وذكرت له ما لديها من معلومات عن السيد "**روبرت**" ورحلته إلى "**بغداد**"، فهتف "**داكن**" قائلا:

– ذلك يوضح كل شيء.. لقد تخلى "**كارمايكل**" عن حذره حين قابل السيد "**روبرت**" في الفندق.. فانتهز هذه الفرصة وفتك به، ولكن "**كارمايكل**" استطاع الوصول إلى غرفتك ومعه الشملة التي يمكننا أن نقول إنه حرص عليها حتى آخر لحظة من حياته..

– هل تعتقد أنني اختطفت لكيلا أنهي إليك هذه الحقيقة؟ ومع ذلك فإنني لم أصارح بها أحدا سوى "**إدوارد**"..

– أعتقد أنهم رأوا أن الوقت قد حان لتصفيتك لأنك تعرفين عن "**غصن الزيتون**" أكثر مما ينبغي.

– لقد حذرني الدكتور "**راتبون**".. أو على الأصح هددني، لابد أنهم عرفوا عن يقين حقيقة الدور الذي أقوم به.

– إن "**راتبون**" ليس مغفلا..

– الواقع، إنني سعيدة بانني لن أعود إلى "**غصن الزيتون**. كل ما أخشاه هو ألا تتاح لي بعد ذلك فرصة للقاء "**إدوارد**". فابتسم "**داكن**" وقال:

– إذا لم يذهب "محمد" إلى الجبل فإن الجبل سيأتي إلى "محمد".. اكتبي الآن إلى "**إدوارد**".. قولي له إنك تقيمين في فندق "**تيو**" وأنك تعتمدين عليه في

إحضار حقائبك..

– إنني سأذهب بعد قليل لمقابلة الدكتور "**راتبون**" بشأن حفلة يزمع إقامتها.. وسيكون في استطاعتي أن أوصل رسالتك إلى "**إدوارد**" فلا تعلم "**كاترين**" عنها شيئا..

أما أنت فعليك أن تعودي إلى فندق "**تيو**" وأن تنتظري هناك.. وإذا.. وتردد فسألته:

– وإذا ماذا؟

– وإذا وقعت في مأزق فلا تفكري إلا في نفسك. سيكون هناك من يتولى حراستك. ولكن أعداءك أقوياء وأنت تعرفين عنهم الكثير..

الفصل الثاني والعشرون

صففت "**فيكتوريا**" شعرها الأشقر وصبغت شفتيها وجلست في شرفة فندق "**تيو**"، لتقوم مرة أخرى بدور "**جولييت**". وجاء "**روميو**" ولمحته "**فيكتوريا**" ونادته:

– "**إدوارد**"!! فنظر نحو مصدر الصوت ورآها وهتف:

– آه! أنت هنا؟ ولحق بها في الشرفة وكانت خالية، ونظر إليها بشيء من الحيرة وقال:

– أنبئيني يا "**فيكتوريا**".. ماذا فعلت بشعرك؟ فتنهدت في ضيق وأجابت:

– إذا سألني سائل عن لون شعري بعد الآن فلن أتردد في تمزيق وجهه بأظافري..

– كنت أفضل لونه الأول فلماذا صبغته؟

– سل "**كاترين**".

– "**كاترين**"؟! وما صلتها بذلك..

– ألم تطلب إليّ أن أوثق صداقتي بها؟ لقد أطعتك.. وهاهي ذي النتيجة.. أكبر الظن أنها لم تنبئك بما حدث لي.

– ماذا حدث لك؟ لقد أقلقني غيابك.

– أحقًّا تقول؟ ألا تعلم أين كنت؟

– كنت في "**الموصل**" بالتأكيد. فقد نقلت إليّ "**كاترين**" رسالتك الشفوية التي قلت فيها إنك اضطررت إلى السفر فجأة إلى "**الموصل**".. وأنك سوف توافينني بأنبائك.

– وهل صدقت ذلك؟

– ظننت أنك امسكت بطرف خيط مهم، ورأيت من الصواب أن تكتمي الأمر عن "**كاترين**".

– ألم يخطر لك ببال أنها قد كذبت؟ كان يجب عليها أن تنبئك بأنهم خدروني واختطفوني.

– يا إلهي!! لم أتصور مطلقا أن يحدث أمر كهذا.. ولكن... ألا ترين من الحكمة ألا نتحدث في هذه الأمور في مثل هذا المكان؟ أليس من الأصوب أن نصعد إلى غرفتك؟

– على رسلك.. هل أحضرت حقائبي؟

– نعم. وقد وضعتها عند موظف الاستقبال في الفندق.

– أحسنت صنعا.. إنني لم أستبدل ثيابي منذ أسبوع.

– ولكن.. ماذا حدث لك بالتفصيل يا "**فيكتوريا**"؟

– إنها قصة طويلة..

– هل تعلمين ماذا يجب أن نفعل؟ إن معي سيارة.. وأعرف مكانا في الضواحي على جانب عظيم من الجمال والروعة في مثل هذا الفصل من السنة.

– هلمي بنا إليه.

وهرولا إلى السيارة كعاشقين ينشدان الخلوة بعيدا عن الأنظار. وجلس "**إدوارد**" أمام عجلة القيادة وانطلق بالسيارة في طريق بعيد يتجه نحو الجنوب.

وبعد نحو نصف الساعة، انحرف بالسيارة نحو اليمين وأوقفها وسط ما يشبه غابة صغيرة من أشجار اللوز والبرقوق والنخيل.. كان المكان رائعًا حقًّا. فهتفت "**فيكتوريا**" وهي تغادر السيارة لتملأ رئتيها بالنسيم النقي.

– كأننا في "**إنجلترا**" في فصل الربيع. وجلسا على العشب تحت مظلة من

أشجار الورد وقال "**إدوارد**" :

– الآن.. بوسعك أن تسردي لي آخر مغامراتك.

فسردت له قصتها منذ ذهبت إلى صالون المرأة الأرمينية إلى أن انضمت إلى بعثة الدكتور "**بونسفوت جونز**"، وكيف لعبت دور فتاة كان الدكتور يترقب وصولها. وانفجر "**إدوارد**" ضاحكا وصاح:

– الحق أنك فتاة رائعة يا "**فيكتوريا**".. إن سرعة خاطرك وخصوبة خيالك تدعوان إلى الدهشة. فابتسمت وقالت:

– أليس كذلك؟ الواقع أنني أفدت كثيراً من الانتساب إلى أحد الأعمام كالدكتور "**بونسفوت جونز**" وأسقف "**لانجو**". وعندما قالت ذلك تذكرت أمرا وتلاشت الابتسامة عن شفتيها.. تذكرت سؤالا همت بإلقائه على "**إدوارد**" في حديقة القنصلية في "**البصرة**" لولا أن قطعت زوجة القنصل حديثهما. قالت:

– لقد تذكرت سؤالا كنت أود أن ألقيه عليك منذ وقت طويل يا "**إدوارد**"، كيف علمت أنني اخترعت عمًّا.. هو أسقف "**لانجو**"؟ وكان ممسكا بيدها، فأحست بأصابعه تضغط يدها بشدة وسمعته يقول بسرعة:

– أنت ذكرت لي ذلك.. فنظرت إليه بحدة. وحين فكرت في الأمر فيما بعد، أدهشتها أن تؤدي كذبة تافهة إلى النتائج الهائلة التي ترتبت على هذه الكذبة التي نطق بها "**إدوارد**" في غير تحرز.

لقد أخذه السؤال على غرة، وكان تقلص عضلات وجهه دليلاً على أنه لم يرضَ كل الرضا عن إجابته. وبدأت الحقائق تنبلج أمام عيني "**فيكتوريا**".. أو لعلها كانت قابعة في ذهنها منذ وقت طويل ولكنها لم ترَها إلا في تلك اللحظة.

لم تكن قد حدثت "**إدوارد**" عن أسقف "**لانجو**".. والشخصان الوحيدان اللذان سمعا منها اسم هذا الأسقف الخيالي هما السيد "**هاملتون كليب**" وزوجته، ولا يمكن أن يكون أحدهما أو كلاهما قد قابلا "**إدوارد**" وهو لا يزال في "**البصرة**". إذن لابد أنهما ذكرا له قصة الأسقف في "**لندن**".

ومعنى هذا أن "**إدوارد**" كان يعلم منذ البداية أن "**فيكتوريا**" ستذهب إلى

"**العراق**" في رفقة السيدة "**كليب**" .. تبا لها ما أغباها! لقد ظنت أن الأمر مجرد مصادفة بينما هو في الواقع مدبر ومرسوم. وأدركت فجأة، ماذا كان يعني "**كارمايكل**" حين ذكر اسم "**لوسيفر**".

"**لوسيفر**" .. أجمل الملائكة..

"**لوسيفر**" الذي طرد من الجنة.

"**لوسيفر**". ابن الصباح، الملاك الذي سقط.

إذن فإن "**راتبون**" ليس الزعيم.. إن الزعيم هو "**إدوارد**" الموظف الصغير الذي يبدو في الظاهر بلا حول ولا قوة.. بينما هو في الواقع كل شيء.. أما "**راتبون**".. فإنه مجرد ستار. ولعله ليس من الرداءة كما توهمت. فهو على الأقل قد نصحها بالفرار قبل فوات الوقت. واكتشفت "**فيكتوريا**" في ذات الوقت، أنها لم تحب "**إدوارد**" قط، وإنما أعجبت به فقط كما تعجب أية فتاة غريرة بأحد نجوم السينما.

لم تستغرق كل هذه التأملات سوى ثوانٍ، ولم يظهر لها أي أثر على وجه "**فيكتوريا**" وهي تنظر إلى "**إدوارد**" بإعجاب مفتعل.. والواقع أنها أحست بغريزتها، أنها في خطر، وأنه لا توجد لنجاتها سوى وسيلة واحدة. فلجأت إليها قالت:

– هل تعرف ماذا خطر لي؟ خطر لي أنك الذي دبرت كل شيء لتيسير قدومي إلى "**بغداد**"... الحق أنك رجل مدهش يا "**إدوارد**".. فارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة ولم يجب.. قالت:

– ولكن كيف استطعت أن تدبر كل ذلك؟ لابد أنك ذو نفوذ وسلطان لا حدود لهما.. ولقد بدأت أرتاب في أنك تحبني حقًّا.

– أنت تعلمين أنني أحبك.

– ولكن ما الهدف من كل هذا يا "**إدوارد**"؟ أريد أن أفهم.

– الهدف هو خلق عالم جديد. عالم جديد ينهض على أنقاض العالم القديم الفاسد.

– أوضح.

فانطلق يتحدث في حماسة شديدة عن الأهداف التي كرس لها حياته، فقال: إن العالم تتنازعه قوتان عظيمتان هما الرأسمالية والشيوعية. والأولى تحرص على وضعها وتقيم العقبات في طريق التطور الحضاري، والثانية تعمل على فرض سيطرتها على العالم. هاتان القوتان يجب أن تختفيا. يجب أن تدمر كل منهما الأخرى.. ولا سبيل إلى ذلك إلا بحرب عالمية تمحو الماضي من أساسه؛ لكي يقبض الشباب على زمام الأمر في عالم جديد تماما.. تحكمه نظم جديدة، ومبادئ جديدة.

– ولكن.. ألن تذهب هذه الحرب العالمية بأرواح ملايين من الضحايا الأبرياء؟

– يجب أن تفهمي أنه لا يمكن إقامة نظم جديدة بغير ضحايا.

كان في مقدورها أن تقول الكثير رداً على هذا المنطق القيم ولكنها آثرت الصمت. ومضت في لعبتها. قالت:

– كم أنا معجبة بك يا "**إدوارد**". ولكن ماذا في استطاعتي أنا أن أفعل؟

– هل أنت على استعداد لخدمة أهدافنا؟

– إنني لا أعرف سواك يا "**إدوارد**". وثقتي بك لا حد لها، فلك أن تأمر وعليّ أن أطيع.

– هذا حسن.

– حدثني أولاً لماذا جئت بي إلى هنا؟ لابد أن يكون هناك سبب.

– نعم. هناك سبب. هل تذكرين أول لقاء لنا؟ إنني التقطت لك يومئذ صورتين.

– نعم، أذكر ذلك.

– لقد أدهشني وجود تشابه عجيب بينك وبين فتاةأخرى فالتقطت صورتك لكي أتحقق من أنني لم أخطئ.

– ومن هي تلك الفتاة التي أشبهها؟

– "**هيلين شيل**".

– "**هيلين شيل**"؟ أنا أشبه "**هيلين شيل**"؟! ولم تستطع الفتاة إخفاء دهشتها

فقال "**إدوارد**" :

– إن التشابه ليس قاصراً على المنظر الجانبي والأمامي، ولكنه يتجاوز ذلك إلى وجود ندبة على يمين الشفة العليا لدى كل منكما.

– هذه الندبة من أثر سقوطي من فوق شجرة وأنا طفلة.. ولكني أحجبها دائماً بالدهون والمساحيق.

– ولـ"**هيلين شيل**" ندبة مماثلة.. وهي أكبر منك بنحو أربع أو خمس سنوات ولكنها تماثلك طولاً ووزنًا. كل ما هنالك من اختلاف بينكما هو أن شعرك أسود وشعرها أشقر، وأن زرقة عينيها أخف من زرقة عينيك، ولكن هذا الاختلاف الأخير يمكن علاجه بالعدسات اللاصقة.

– وهل هذا التشابه هو الذي حملك على إحضاري إلى "**بغداد**" ؟

– نعم، فقد قدرت أننا نستطيع الإفادة منه.

– ولذلك دبرت الأمر مع السيد "**كليب**" وزوجته، ولكن من هما بالتحديد؟

– إمعتان لا أهمية لهما، يفعلان ما يؤمران به.

– يا إلهي ما أشد صلفه وغروره. إنه معبود نفسه. وذلك ما يجعله إنسانا رهيبا.

قالت :

– ولكن ألم تقل لي إن "**هيلين شيل**" شخصية مهمة في منظمتكم؟

– إنما أردت أن أضللك. فقد كنت تعلمين أمورا كثيرة. وهنا قالت "**فيكتوريا**" لنفسها «إن التشابه بينها وبين "**هيلين شيل**" ربما قد أنقذ حياتها». ومن تكون "**هيلين شيل**" هذه؟

– إنها السكرتيرة الخاصة للاقتصادي الدولي "**أوتومورجنتال**" . وهي فتاة ذات عقلية جبارة. ولدينا من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأنها تعرف الكثير عن صفقاتنا المالية.. كان هناك ثلاثة أشخاص على جانب عظيم من الخطورة بالنسبة إلينا. "**روبرت كرفتون لي**"، و"**كارمايكل**" وقد تمت تصفيتهما.. أما "**هيلين**" فإنها لا تزال على قيد الحياة وينتظر أن تصل إلى "**بغداد**" خلال ثلاثة أيام ولكنها الآن مختفية.

– مختفية؟ أين؟

– في "**لندن**".

– ألا يعرف أحد مكانها؟

– ربما كان "**داكن**" يعرف.

– وأنت.. أليست لديك أية فكرة عنها؟ فقال بعد تردد قصير:

– المفهوم أنها يجب أن تحضر إلى "**بغداد**" للاشتراك في المؤتمر الدولي الذي سيعقد بعد خمسة أيام كما تعلمين.. وقد بحثنا في سجلات الشركات السياحية ووجدنا أن هناك مكانا محجوزا في إحدى الطائرات باسم سيدة تدعى "**جريتا هاردن**".. وبالاستعلام عن "**جريتا هاردن**" وجدنا أنه اسم مستعار لسيدة أدلت عن نفسها ببيانات زائفة.. ولذلك فإننا نعتقد أن "**جريتا هاردن**" هذه ليست سوى "**هيلين شيل**". وصمت لحظة ثم استطرد قائلا:

– إن طائرتها ستصل إلى "**دمشق**" بعد غد. وبعد ذلك سيتوقف كل شيء عليك أنت.

– عليّ أنا؟

– نعم، لأنك ستحلين محلها.

فتذكرت السيد "**روبرت كرفتون لي**". وفر لونها. لقد لقي السيد "**روبرت**" مصرعه في عملية مماثلة.. وجاء الآن دور "**هيلين شيل**". وفكرت "**فيكتوريا**" في أنها إذا رفضت الدور الذي يعرضه عليها "**إدوارد**" فإنه سيرتاب في إخلاصها ويفتك بها قبل أن تتمكن من الاتصال بـ"**داكن**" وإطلاعه على اكتشافها الجديد. كان لزاما عليها أن تقبل.. فتلك هي فرصتها الوحيدة لإمكان الاتصال بـ"**داكن**". تنهدت وقالت:

– ولكني لا أستطيع أن أقبل ذلك يا "**إدوارد**".. سيفتضح أمري توا؛ لأنني لا أعرف اللكنة الأمريكية.

– إن "**هيلين شيل**" تتكلم الإنجليزية بغير أية لكنة. ثم إنك ستصابين بمرض في الحلق، وسيؤيد ذلك طبيب من أكبر أطباء "**بغداد**".

– وماذا يجب عليَّ أن أفعل؟

– ستغادرين "**دمشق**" بصفتك "**جريتا هاردن**"، وستلازمين فراشك في "**بغداد**" بأمر الطبيب، ولا تغادرينه إلا للاشتراك في المؤتمر يوم افتتاحه، وهناك تقدمين ما معك من وثائق..

– وثائق مزيفة بطبيعة الحال؟

– نعم. وقد فرغنا من إعدادها.

– وماذا تثبت هذه الوثائق؟ فابتسم "**إدوارد**" وأجاب:

– تثبت وجود مؤامرة شيوعية لقلب نظام الحكم في "**الولايات المتحدة الأمريكية**".

– وهل تعتقد يا "**إدوارد**" أن لدي الكفاءة للقيام بهذا الدور.

– ولم لا؟ إنك بارعة في الكذب.

ولم يسع "**فيكتوريا**" إلا الاعتراف فيما بينها وبين نفسها بفوائد الكذب. فلولا أنها نسبت نفسها كذبا إلى أسقف "**لانجو**" لما استطاعت أن تميط اللثام عن حقيقة "**إدوارد**". فقالت:

– والدكتور "**راتبون**".. هل هو أيضا من زعماء المنظمة؟ فقلب "**إدوارد**" شفتيه باحتقار وأجاب:

– إن "**راتبون**" يطيع ولا يأمر.. هل تعلمين ماذا فعل هذا الأستاذ العظيم؟ لقد ظل طوال سنوات عديدة يختلس لنفسه ثلاثة أرباع الاشتراكات والمعونات التي ترسل إلى المعهد من شتى أنحاء العالم. إنه محتال بارع، ولكنه أصبح في قبضة يدنا، وفي استطاعتنا أن نفضحه في أية لحظة. وهو يعلم ذلك جيدا.

وتخيلت "**فيكتوريا**" الدكتور "**راتبون**" بجبهته العريضة، وشعره الأبيض وقالت لنفسها: «إنه ربما كان محتالاً. ولكنه إنسان جدير بالشفقة». ونهض "**إدوارد**" وهو يقول:

– آن لنا أن نرحل، لكي نعد العدة للخطوة التالية.

وكان ذلك هو ما تتوق إليه "**فيكتوريا**". كانت تتوق إلى العودة إلى "**بغداد**" في

أقرب وقت، فإن الخطر عليها هناك سيكون أقل. قالت تحدث "**إدوارد**":

– قلت منذ لحظة إن السيد "**داكن**" ربما كان يعرف مكان "**هيلين شيل**". إن في استطاعتي أن أحمله على الكلام.. والإفضاء بمعلوماته عنها..

– لا أمل في ذلك. ثم إنك لن تقابلي "**داكن**". فأحست "**فيكتوريا**" كأن قلبها قد كفَّ عن الحركة.. وجدت من الضروري أن تكذب.. وبجرأة قالت:

– ولكني كنت على موعد معه هذا المساء. فإذا لم أذهب إليه فقد يرتاب في الأمر..

– ذلك لا أهمية له في الوقت الحاضر.. لقد أعددنا مخططاتنا. ولا ضرورة لبقائك في "**بغداد**".

– ولكن أمتعتي كلها في فندق "**تيو**". كانت تفكر في شملة "**كارمايكل**".

– لن تكوني في حاجة إلى أمتعتك في الوقت الحاضر. إنني أعددت لك زيا خاصا.. هلمي بنا.

وأدركت "**فيكتوريا**" أنه كان من الغباء أن تتصور أن "**إدوارد**" سيسمح لها بفرصة للاتصال بـ"**داكن**" بعد أن علمت من أمره ما علمت. وانطلقت بهما السيارة في الطريق إلى "**بغداد**".. وساد السكون بينهما فترة طويلة.. إلى أن غمغم "**إدوارد**" قائلا وكأنه يحدث نفسه:

– "**لافارج**"! ليتني أعلم لماذا ذكر "**كارمايكل**" هذا الاسم! وسرعان ما تفتق ذهن "**فيكتوريا**" عن كذبة جديدة. صاحت:

– آه! نسيت أن أقول لك إن رجلاً يدعى "**لافارج**" زار حفائر "**التل الأسود**" منذ بضعة أيام.. فصاح "**إدوارد**" وقد اختلت عجلة القيادة في يده:

– ماذا قلت؟! متى حدث ذلك؟ فتظاهرت "**فيكتوريا**" بالتفكير.. وأجابت بعد لحظة.

– منذ نحو ثمانية أيام. وقد قال إنه يبحث عن الآثار في "**سوريا**" مع بعثة "**بارو**"..

– وهل زار الحفائر وأنت هناك رجلان يدعى أحدهما "**أندريو**" والآخر يدعى

"**جوفيه**"؟

– نعم.. وأذكر أن أحدهما أصيب بألم في معدته.

– لقد كانا من أتباعنا..

– وهل أرسلتهما للبحث عني؟

– لا. فإنني لم أكن أعرف مكانك، ولكن حدث أن "**ريتشارد بيكر**" كان في "**البصرة**" في نفس الوقت مع "**كارمايكل**"، فخطر لنا أن "**كارمايكل**" ربما قد أودع لديه بعض الوثائق التي تهمنا.

– آه! هذا يفسر شكوى "**بيكر**" من أن بعضهم قد عبث بأمتعته.. هل وجد الرجلين أم جاء بعدهما؟ فتظاهرت بالتفكير وأجابت:

– قبلهما.. بنحو أربع وعشرين ساعة.

– وماذا فعل؟

– تفقد الحفائر مع الدكتور "**بونسفوت جونز**" ثم رافق "**بيكر**" إلى المنزل لزيارة مخزن الآثار.

– وهل دار حديث بين "**لافارج**" و"**بيكر**"؟

– لا أعلم. فإنني كنت في قاعة التصوير.

– ليتني أعلم من يكون "**لافارج**" هذا. هل تستطيعين وصفه؟

– إنه طويل القامة، نحيف الجسم، أسود شعر الرأس، شاحب اللون.

فتنهد "**إدوارد**" ولزم الصمت.. وأوقف "**إدوارد**" السيارة أمام فيللا الحي الأوربي خارج "**بغداد**"، ودق جرس الباب ففتحته امرأة قصيرة القامة، شاحبة الوجه. وتبادل "**إدوارد**" مع المرأة بعض العبارات باللغة الفرنسية، فذهبت المرأة بـ"**فيكتوريا**" إلى إحدى غرف النوم. وبعد نحو نصف الساعة، خرجت المرأتان من الغرفة وهما ترتديان ثياب الراهبات وفي يد كل منهما مسبحة. ونظر "**إدوارد**" إلى "**فيكتوريا**" وصاح وهو يبتسم:

– إنك أجمل راهبة رأيتها في حياتي، إنما ينبغي أن ترخي أهدابك وتنكسي رأسك، خصوصا أمام الرجال.

ثم رافق المرأتين إلى سيارة كانت تنتظر بالباب وقال يحدث "**فيكتوريا**" :

– كل شيء الآن يتوقف عليك يا "**فيكتوريا**" .. فافعلي كل ما يطلب إليك.

– ألا تأتي معنا؟

– لا. ولكنا سنلتقي فيما بعد. ثم أدنى رأسه منها وقال بصوت عذب:

– إنني أعتمد عليك أيتها الحبيبة.. فهذا دور لا يستطيع القيام به سواك. إن أوراقك كاملة ولن تصادفك متاعب عند الحدود، وبهذه المناسبة.. أنت الآن الأخت "**ماري دايزاغ**" .. وهذه هي الأخت "**تيريز**" . إنها ستهتم بكل شيء وعليك إطاعتها. قال ذلك ثم أومأ إلى سائق السيارة فأدار محركها وما هي إلا لحظة حتى كانت تطوي الأرض طيا.

وفكرت "**فيكتوريا**" في أنها ربما تستطيع الاستغاثة في شوارع "**بغداد**" ، أو عند الحدود. ولكنها ما كادت ترى المسدس الذي وضعته زميلتها في كم ثوبها حتى أقلعت عن التفكير في الاستغاثة.

الفصل الثالث والعشرون

هبطت الطائرة الضخمة بسلام، وغادرها ركابها.. وكان بينهم أربعة أشخاص يقصدون "**بغداد**" ويتعين عليهم أن يستقلوا طائرة أخرى، بعد عرض جوازاتهم على الموظف المسؤول. وأحد هؤلاء الأربعة رجل عربي بدين يبدو أنه تاجر عراقي، والثاني طبيب إنجليزي شاب وسيدتان. وتقدمت إحدى السيدتين من الموظف المختص. فتناول جواز سفرها وقال وهو يتصفحه:

– السيدة "**بونسفوت جونز**" ؟ إنجليزية؟ هل ستلحقين بزوجك؟ حسنًا. ما عنوانك في "**بغداد**" ؟ شكرًا.. كم معك من النقود؟ وتقدمت الثانية. وكانت في مقتبل العمر، شقراء نحيفة، فتناول الموظف جواز سفرها. وقال وهو يتصفحه:

– الآنسة "**جريتا هاردن**" ؟ دانماركية، قادمة من "**لندن**" ؟ ما عنوانك في "**بغداد**" ؟ شكرًا.. كم معك من النقود؟

وقيل للمسافرين الأربعة إن الطائرة ستقلع في المساء. إن هناك سيارة ستقلهم إلى الفندق العباسي، حيث يتناولون طعام الغداء ويلتمسون بعض الراحة.

✿✿✿✿✿

وفي الفندق العباسي تمددت "**جريتا هاردن**" في فراشها، وكانت بسبيل تصفح إحدى المجلات حين سمعت طرقا على الباب ففتحته ووجدت أمامها مضيفة تضع على صدرها شارة شركة الطيران. قالت المضيفة:

– يؤسفني أن أزعجك يا آنسة "**هاردن**". ولكن يبدو أن هناك خطأ في تذكرة سفرك.. إن الأمر سهل على كل حال. فهلا تفضلت معي إلى مكتب الشركة في الفندق، إنه في آخر الدهليز..

ولم تكد "**جريتا**" تدخل غرفة على بابها لوحة تحمل كلمة "مكتب" – وقد اختفت هذه اللوحة في اللحظة التالية – حتى وضعت على فمها كمامة، وألقي على رأسها كيس من القماش الأسود. وأمسك بها رجلان ليمنعاها من الحركة، وتقدم ثالث يبدو أنه طبيب فكشف عن ذراعها وأغمد فيه إبرة. وبعد ثلاثين ثانية غابت الفتاة عن وعيها تماما. قال الطبيب:

– لن تفيق قبل ست ساعات.. ثم فتح بابا وأطل منه وقال:

– أقبلا.. فدخلت امرأتان ترتديان ثياب الراهبات. وانصرف الرجال الثلاثة.. وعلى الفور تبادلت أصغر الراهبتين ثيابها مع "**جريتا هاردن**"، وأقبلت الراهبة الثانية فقصت شعر زميلتها على نحو ما تفعل "**هيلين شيل**" بشعرها، واستعانت في ذلك بصورة فوتوغرافية كانت معها، وما إن فرغت من ذلك حتى دق الباب ودخل الرجال الثلاثة وعلى وجوههم مظاهر الارتياح. قال الطبيب:

– ليس ثمة شك في أن "**جريتا**" هي "**هيلين شيل**".. فقد وجدنا أوراقها مخبأة في حقيبتها وسط حزمة من المجلات. ثم انحنى باحترام أمام "**فيكتوريا**" وقال:

– والآن يا آنسة "**هاردن**"، هل تشرفينني بتناول طعام الغداء معي؟ وتبعته

"**فيكتوريا**" . ولم يكن في بهو الفندق سوى سيدة تتحدث إلى موظف الاستقبال. كانت تقول له:

- كلا، إن صيغة البرقية لا غبار عليها.. «سأكون في فندق "**تيو**"، ألف قبلة». ولكن التوقيع خطأ. الاسم هو: "**بونسفوت جونز**" . "**بونسفوت**" ونظرت "**فيكتوريا**" إلى السيدة من ركن عينها.

- إذن فهذه هي زوجة الدكتور "**بونسفوت جونز**" ؟ ليتها تستطيع أن تعهد إليها برسالة لـ"**ريتشارد بيكر**" .

ورأت "**فيكتوريا**" زوجة الدكتور مرة أخرى في قاعة الطعام، ومرة ثالثة في الطائرة التي أقلتها إلى "**بغداد**" ولكن لم تسنح لها الفرصة للاتصال بها.

- 2 -

قال "**بيكر**" :

- الحق أنني قلق على هذه الصغيرة. فقال الدكتور "**بونسفوت جونز**" وهو شارد الذهن:

- أية صغيرة؟

- "**فيكتوريا**" . فقطب الدكتور بين حاجبيه وقال باهتمام:

- هذا صحيح.. الواقع أنك عدت أمس بدونها. لم يكن في نيتها العودة على كل حال؛ لأنها ليست "**فيرونيكا سافيل**" .

- آه! هذا عجيب! ولكن ألم تقل لي إن اسمها "**فيكتوريا**" ؟

- إن اسمها "**فيكتوريا**" .. ولكنها لم تعرف قط الدكتور "**إيمرسون**" ، ولم تدرس في يوم ما تاريخ الأجناس البشرية. كان هناك سوء تفاهم.

- هذا أمر يؤسف له.. الواقع أن شرود ذهني أصبح لا يحتمل.. أصبحت لا أذكر ما يقال أمامي وأفقد الرسائل التي ترد إليّ. ومن هنا ينشأ سوء التفاهم. واستطرد "**بيكر**" مسترسلا مع تأملاته:

- قيل لي إنها خرجت مع شاب في سيارة. ولم يرَها أحد بعد ذلك.

وحقائبها لا تزال في الفندق ولم تكلف "**فيكتوريا**" نفسها عناء فتحها.. خصوصا وأنها قضت عندنا عدة أيام وكانت في أشد الحاجة إلى استبدال ثياب نظيفة بثيابها المتسخة.. يضاف إلى كل ذلك أنني كنت على موعد معها لتناول الغداء.. الحق، إنني لا أكاد أفهم... كل ما أرجوه ألا يكون قد أصابها مكروه.

– يخيل إليّ أنك تزعج نفسك بلا مبرر.

– لقد اختطفوها مرة.. ومن المحتمل أن يكونوا قد اختطفوها مرة أخرى.

– هذا أمر بعيد الاحتمال يا بني.. فالأمن والهدوء يسودان البلاد.

– ليتني فقط أذكر اسم ذلك الرجل الذي يعمل في شركة البترول! اسمه "**ديكون**"... "**داكن**"... شيء من هذا القبيل. وصمت لحظة ثم استطرد قائلا:

– هل يضايقك يا دكتور أن أذهب إلى "**بغداد**" غدا؟

– غدا؟ ولكنك كنت هناك أمس.

– ولكنني في أشد حالات القلق عليها..

– لماذا كتمت الأمر عني يا "**ريتشارد**"؟

– أي أمر؟

– لم أكن أعلم أنك مهتم بأمر الفتاة إلى هذا الحد، هذه هي المتاعب التي تنشأ عن اشتراك النساء في أعمال البعثة.. وبخاصة إذا كن على شيء من الجمال.. هذه أول مرة أراك فيها تهتم بامرأة. فاحمر وجه "**بيكر**" وقال:

– إنني لم أقع في حبها.. ولكنني قلق عليها.. ويجب أن أذهب إلى "**بغداد**".

– اذهب إذن.. وحبذا لو انتهزت الفرصة وأحضرت معك الفؤوس التي نسيها السائق أمس..

ورحل "**بيكر**" في الفجر.. ووصل إلى "**بغداد**" في الساعة الثامنة صباحًا، وقصد توا إلى فندق "**تيو**" وسأل عن "**فيكتوريا**" وعلم أنها لم تعد.

وقال له "**ماركوس**":

– هذا غريب.. حقًّا.. لقد وعدتني أن تتناول العشاء معي فأعددت لها مادبة لا مثيل لها.

– هل أبلغت البوليس؟

– لا. إن ذلك قد يضايقها.. ومن المحقق أن يضايقني كذلك.

ولم يجد "**بيكر**" صعوبة في معرفة عنوان "**داكن**" فذهب إليه في مكتبه. ووجد أنه كان على صواب حين عرفه من مجرد وصف "**فيكتوريا**" له. سأله عما إذا كان قد رأى "**فيكتوريا**" فأجاب:

– إنها جاءت لمقابلتي أمس الأول.

– هل تستطيع أن تدلني على عنوانها حاليا؟

– كل ما أعلمه أنها تقيم في فندق "**تيو**".

– إن حقائبها هناك ولكنها اختفت. فقطب "**داكن**" حاجبيه. وقال "**بيكر**":

– إنها عملت معنا بضعة أيام في حفائر "**التل الأسود**".

– فهمت.. ولكن لسوء الحظ ليست لدي معلومات عنها. إن لها أصدقاء في "**بغداد**" ولكني لا أعرفهم.

– ألا يحتمل أن تكون في "**غصن الزيتون**"؟

– لا أظن ذلك. في استطاعتك أن تسأل.. فنهض "**بيكر**" وهو يقول:

– على كل حال. لن أغادر "**بغداد**" قبل أن أجدها. ورمق "**داكن**" بنظرة تنم على السخط وانصرف وعاد أدراجه إلى فندق "**تيو**"، ووجد "**ماركوس**" في الصالة ووجهه يتألق بشراً، فانتعشت آماله وهتف:

– هل عادت؟

– كلا.. ولكني علمت بنبأ قدوم السيدة "**بونسفوت جونز**". إنها الآن في المطار. على الرغم من أن الدكتور "**بونسفوت**" أكد لي أنها لن تحضر قبل أسبوع..

– إنه لا يذكر من التواريخ إلا ما يتصل بالعصور القديمة.. أما من نبأ عن "**فيكتوريا**"؟ فارتسم الحزن على وجه "**ماركوس**" وأجاب:

– لا، وهذا أمر مزعج.. إنها فتاة ظريفة، ومرحة. فتنهد "**بيكر**" وأجاب:
– أظن أنه يحسن بي أن أنتظر السيدة "**بونسفوت جونز**"؛ لأقدم لها تحياتي..

- 3 -

– أنت؟ كان صوت "**فيكتوريا**" يعبر عن كل ما يعتمل في نفسها من حقد وبغض.. ذلك أنها ما كادت تدخل الغرفة التي حجزت لها في فندق "**بابل**" حتى وجدت "**كاترين**" في انتظارها. وأجابت "**كاترين**" بنفس الحقد:
– نعم أنا. تمددي هنا فسيأتي الطبيب في التو واللحظة.
وكانت "**كاترين**" ترتدي ثياب الممرضات.. وكل حركاتها تدل على أنها لا تنوي أن تدع "**فيكتوريا**" تغيب عن بصرها لحظة واحدة. وتمددت "**فيكتوريا**" على الفراش وهي تقول بصوت خافت:
– إذا قلت إن "**إدوارد**" في قبضة يدي فإنني أعني ما أقول. فضحكت "**كاترين**" وصاحت:
– "**إدوارد**"؟ أيتها الإنجليزية البلهاء.. إن "**إدوارد**" لا يحب أحدا سواي. ثم انحنت فوق الفراش وهتفت:
– لقد كرهتك منذ وقع بصري عليك لأول مرة. إنني أبغضك.. أبغضك.. هل فهمت؟ فقالت "**فيكتوريا**" لتغيظها:
– المهم.. إنه لا غناء له عني.. أما أنت فإنك مجرد ممرضة. تستطيع أي فتاة أخرى أن تقوم بدورها.. إن كل شيء يتوقف عليَّ أنا يا "**كاترين**".. فهزت "**كاترين**" كتفيها وأجابت:
– يجب أن تعلمي أنه لا يوجد إنسان لا يمكن الاستغناء عنه.
– أنا ذلك الإنسان. قولي لهم إنني أريد طعاما ممتازا يليق بسكرتيرة مليونير أمريكي.
– حسنا.. اضحكي مادام ذلك في استطاعتك.
وكانت إجابتها حافلة بالتهديد. ولكن "**فيكتوريا**" لم تلقِ إليها بالا.

- 4 -

اقترب الكابتن "**كروسبي**" من مكتب موظف الاستقبال في فندق "**بابل**" وسأله:

– هل الآنسة "**جريتا هاردن**" في غرفتها؟ فأطرق الموظف برأسه وأجاب:

– نعم يا سيدي.. لقد وصلت من "**إنجلترا**" في التو واللحظة..

– إنها صديقة أختي.. هل لك أن ترسل بطاقتي إليها؟

وأخرج من جيبه بطاقة كتب عليها بضع كلمات في غلاف.. وبعد فترة، عاد الخادم الذي حمل البطاقة وقال:

– إن الآنسة "**هاردن**" لا تستطيع استقبالك يا سيدي، فإنها مصابة بمرض في حلقها، وتلازم الفراش.. إنها تنتظر الطبيب ومعها إحدى الممرضات. فانصرف الكابتن "**كروسبي**" وقصد إلى فندق "**تيو**"، وهناك بادره "**ماركوس**" قائلا:

– إنني أدعوك لتناول بعض الشراب. إن الفندق حافل بالنزلاء بسبب المؤتمر، وقد اضطررت إلى التخلص من أحد موظفي الأمم المتحدة لكي أفسح مكانا للسيدة "**بونسفوت جونز**".. إنها جد غاضبة؛ لأنها لم تجد زوجها في انتظارها. الواقع أن الدكتور رجل ظريف ولكنه كثير النسيان.

– إن انطباعي عن "**بغداد**" الليلة أنها تعيش فترة جنون.

– إن هذا صحيح.. ويبدو أنهم اكتشفوا مؤامرة ضد بعض أعضاء المؤتمر، وقد ألقوا القبض على خمسة وستين طالبًا.

- 5 -

دق جرس التليفون، فتناول سكرتير السفارة السماعة وقال:

– هنا السفارة الأمريكية. الآنسة "**هيلين شيل**"؟ هل أستطيع التحدث إليها؟

– هنا فندق "**بابل**".. الآنسة "**هيلين شيل**" موجودة في الفندق.

– إنها مريضة في فراشها، وأنا الدكتور "**سمولبروك**" طبيبها. تقول الآنسة إن معها وثائق مهمة تريد تسليمها إلى مسؤول في السفارة هل ستوفد إليها رسولاً؟ الآن؟ حسنا.. إنها في الانتظار.. شكرا.

- 6 -

ارتدت "**فيكتوريا**" ثوبا أنيقا، نظرت إلى نفسها في المرآة ووجدت شعرها الأسود مقبولاً.

وفجأة، نظرت خلفها فرأت "**كاترين**" تتأملها بعينين تتالقان سرورا فأحست بالدهشة والقلق وسألتها:

– ما سبب اغتباطك؟

– ستعلمين في التو واللحظة. وكان صوتها مليئا بالاحتقار واستطردت قائلة:

– ألا تزالين تعتقدين أن كل شيء يتوقف عليك؟ يا لك من حمقاء!! فانقضت عليها "**فيكتوريا**" ونشبت أظفارها في كتفيها وهي تصيح:

– أوضحي أيتها الشقية. ماذا تعنين؟

– دعيني.. إنك تؤلمينني.

– تكلمي.. وفي هذه اللحظة. دق الباب ثلاث مرات بطريقة خاصة. فقالت "**كاترين**" وعيناها تتالقان:

– ستعلمين الآن كل شيء..

وفتح الباب ودخل رجل طويل القامة، يرتدي ثياب البوليس الدولي.. وأغلق الرجل الباب ووضع مفتاحه في جيبه وقال يحدث "**كاترين**":

– هلمي، يجب أن نعمل بسرعة. فجلست "**كاترين**" على أحد المقاعد، وشد الرجل وثاقها جيدا وكمم فمها.. ثم وقف منها على بعد خطوتين وتأملها قائلا:

– هذا رائع. ثم تحول إلى "**فيكتوريا**" فرأت هذه – والرعب يملأ قلبها – أن في يده مطرقة.. وبأسرع من لمح البصر فهمت كل شيء.

فهمت أنه لم تكن هناك أية نية لجعلها تقوم بدور "**هيلين شيل**" في المؤتمر. إن قيامها بهذا الدور كان ينطوي على خطورة شديدة، لأن الكثيرين في "**بغداد**" يعرفونها شخصيا بصفتها "**فيكتوريا جونز**".

لذلك تفتقت أذهانهم عن فكرة أفضل. هي أن تقتل "**هيلين شيل**" في آخر لحظة ويشوه وجهها بحيث لا يتعرف عليها أحد.. وهكذا تكتشف جثة "**هيلين**"

في غرفتها، وتكتشف معها الوثائق التي جاءت بها. وهي بطبيعة الحال وثائق زائفة أعدها أعوان "**إدوارد**"..

*****

وتقدم منها الرجل وعلى شفتيه ابتسامة وحشية فاندفعت نحو النافذة وهي تصرخ. وسمعت "**فيكتوريا**" صوت زجاج يتحطم، وأحست بضربة تزلزل كيانها.. وفقدت الوعي..

- 7 -

تناول "**داكن**" السماعة وقال:

- إنني مصغ..
- انتهت العملية بنجاح تام.
- حسنًا..
- اعتقلنا الطبيب و"**كاترين سركيس**"، وفر الرجل الآخر من النافذة... ولكنه اعتقل عند باب الفندق.
- هل جرحت الفتاة؟
- لا.. أصيبت بضربة.. وأغمي عليها..
- هل ثمة أنباء عن "هـ. ش" الحقيقية؟
- لا.. فوضع "**داكن**" السماعة.. لقد نجت "**فيكتوريا**".. وهذا أمر له أهميته.. أما "**هيلين شيل**".. فلابد أنها ماتت. لقد أصرت على أن يدعوها وشأنها.. ووعدت بأن تكون في "**بغداد**" يوم 19 واليوم هو التاسع عشر. ولم تظهر. إن اختفاءها سوف يضعف قضيته؛ لأنه كان يعتمد عليها كل الاعتماد في إماطة اللثام عن ركن مهم من أركان المؤامرة الرهيبة التي تستهدف إشعال حرب بين القوتين العظميين لا تبقي ولا تذر.

ودخل الخادم وقدم إليه ورقة عليها اسم "**ريتشارد بيكر**" والسيدة "**بونسفوت**

جونز " .. وقرأ "**داكن**" الاسمين وقال في ضيق:

– قل لهما إنني آسف. ولا أستطيع استقبالهما.

فانصرف الخادم وعاد بعد لحظة وبيده الرسالة وفضّ "**داكن**" الغلاف ووجد قصاصة كتبت عليها هذه الكلمات:

«أود أن أحدثك عن "**كارمايكل**" » قال:

– دعهما يدخلان.. ودخل الزائران، وجلسا، وتحدث "**بيكر**" في الموضوع مباشرة.. قال:

– سأتكلم بإيجاز اقتصادا للوقت.. فقد اتفق أنني كنت زميلاً في الدراسة لشخص يدعى "**هنري كارمايكل**" ثم افترقنا، ومضت عدة أعوام لم نلتق خلالها.. ورأيته أخيرا في دار القنصلية البريطانية في "**البصرة**". وكان متنكرا في زي عربي، فعرفني واستطاع التفاهم معي. فهل يهمك هذا الموضوع؟

– إلى أقصى حد.

– لقد فهمت منه أنه في خطر وبعد بضع دقائق حاول رجل إطلاق الرصاص عليه. ولكني جردته من مسدسه، وتمكن "**كارمايكل**" من الفرار.. ولكني لاحظت فيما بعد، أنه دس في جيبي ورقة يبدو من ظاهرها أن لا أهمية لها. ولكني قررت أن أتصرف كما لو كانت لهذه الورقة كل الأهمية بالنسبة إلى "**كارمايكل**". واحتفظت بها على أمل أن يعود "**كارمايكل**" ذات يوم للمطالبة بها...

ولكني علمت من "**فيكتوريا جونز**" منذ أيام أن "**كارمايكل**" لقي مصرعه، وفهمت من ملابسات أخرى أنه إذا كان هناك إنسان من حقه أن يحصل على هذه الورقة فذلك الإنسان هو أنت.. ها هي ذي الورقة.. قال ذلك ووضع الوثيقة على مكتب "**داكن**". واستطرد قائلا:

– هل لها أية أهمية؟

– إنها أهم مما تتصور يا "**بيكر**" .. وأنا لا أعرف كيف أشكرك. وقد كنت أود أن يطول هذا اللقاء.. لولا أن لدي من المهام – بالغة الخطورة – ما يمنعني من أن أضيع دقيقة واحدة. وشد على يد "**بيكر**"، وقال وهو يصافح السيدة "**بونسفوت جونز**"!

– لا شك في أنك ستلحقين بزوجك العظيم في حفائر "التل الأسود" ؟ إنني أتمنى لبعثته كل نجاح وتوفيق.

فقال "**بيكر**" :

– من حسن الحظ أن الدكتور "**بونسفوت جونز**" لم يحضر معي إلى "**بغداد**" اليوم، إنه عادة لا يلاحظ شيئًا مما يدور حوله، ولكن من المحقق أنه كان سيلاحظ وجود بعض الفوارق والاختلافات بين زوجته وشقيقتها ففزع "**داكن**". ونظر إلى السيدة "**بونسفوت جونز**" التي قالت بصوت رقيق:

– إن أختي "**إيلزا**" لا تزال في "**إنجلترا**"، وقد صبغت شعري واستخدمت جواز سفرها.. إن السيدة "**بونسفوت جونز**" قبل زواجها كانت تدعى "**إيلزا شيل**" أما أنا يا سيد "**داكن**" فإنني "**هيلين شيل**"..

الفصل الرابع والعشرون

لم تشهد شوارع "**بغداد**" من رجال الشرطة مثل العدد الذي شهدته يوم افتتاح المؤتمر.. وفي أحد قطاعات قصر نائب الملك اجتمعت إحدى لجان المؤتمر؛ لاستعراض الأخطار التي تهدد السلام العالمي.

وافتتح الجلسة الدكتور "**آلان بريك**" مدير معهد الذرة في "**هارديل**"، فألقى كلمة موجزة مؤيدة بالوثائق، تحدث فيها عن عينات التربة التي أحضرها السيد "**روبرت كرفتون لي**" من "**الصين**" و"**تركستان**" و"**العراق**" وأثبت التحليل أنها غنية بمعدن اليورانيوم.. ثم تكلم "**داكن**"، فروى قصة "**كارمايكل**". الرجل الذي لم يسخر من الشائعات القائلة بوجود مصانع هائلة في مناطق مهجورة بعيدة عن الحضارة، والعمران، فخاطر بحياته للتحقق من صحة هذه الشائعات. ثم قال:

– لقد ذهب "**كارمايكل**". وذهب السيد "**روبرت كرفتون لي**". ولكن بقي شخص يستطيع أن يميط اللثام عن حقائق مذهلة. فأرجو أن تصغوا إليه إنه الآنسة "**هيلين شيل**".

وبهدوء ورباطة جأش، تكلمت "**هيلين شيل**" كما كانت تتكلم في مكتب "**مورجنتال**" . فذكرت أسماء وأرقاما وأوضحت كيف استطاعت إحدى المنظمات أن تستنزف مبالغ جسيمة من شتى أنحاء العالم لتمويل مشروعاتها التي تهدف إلى بذر الشقاق بين كتلتين من الدول، وتأليب كل منهما على الأخرى لإشعال نار حرب عالمية مدمرة.

وعَقّب "**داكن**" على حديثها فقال: إن "**كارمايكل**" قد جاء بالأدلة ولكنه لم يحتفظ بها معه؛ خوفا من أن تقع في أيدي أعداء كان يعلم أنهم يترصدونه في كل ركن. وإنما تركها وديعة لدى واحد من أصدقائه هو الشيخ "**حسن الزيارة**" من كبار علماء المسلمين في "**كربلاء**" . ونهض الشيخ الوقور "**حسن الزيارة**" ، فقال إنه عرف "**كارمايكل**" منذ كان طفلا، وعلمه قواعد اللغة، وشرح له الكثير من قصائد الشعراء القدامى والمحدثين .. ثم حدث منذ بضعة أسابيع أن جاءه رجلان يعرضان صوراً في صندوق، وقدما إليه حزمة صغيرة قالا إنها من لدن "**كارمايكل**" ، وأن هذا الأخير يطلب إليه أن يكتم أمرها ويحتفظ بها فلا يسلمها إلا لمن يقول بيتا معينا من الشعر. وهنا قال "**داكن**" :

– إنه بيت قاله أحد الشعراء في مدح سيف الدولة أمير "**حلب**" . فابتسم الشيخ وقال:

– هو ذاك .. إليك الحزمة.

– إن في هذه الحزمة مجموعة من الأفلام سجل فيها "**كارمايكل**" صور المصانع التي شاهدها. والرأي عندي أن تقدم في هذه الجلسة صور من وثائق "**كارمايكل**" و"**هيلين شيل**" إلى رؤساء الوفود التي تشترك في المؤتمر.

الفصل الخامس والعشرون

قالت "**فيكتوريا**" :

– ليس هناك ما يؤلمني ويحز في نفسي سوى الفتاة الدانماركية المسكينة التي

لقيت حتفها في "**دمشق**". فأجاب "**داكن**" وهو يبتسم:

– هل تعنين الآنسة "**جريتا هاردن**"؟ إنها لا تزال على قيد الحياة وتتمتع بصحة جيدة، ولم يكن هناك خطر على حياتها طوال فترة انعقاد المؤتمر لقد نقلناها إلى المستشفى واعتقلنا المرأة الفرنسية التي كانت تتنكر في زي الراهبة... ولعل من تحصيل الحاصل أن أقول لك إن "**جريتا هاردن**" تعمل هنا معنا.

– أحقًّا تقول؟

– نعم. لقد رأينا بعد اختفاء "**هيلين شيل**" أن نضلل خصومنا.. فحجزنا مكانا في الطائرة لـ"**جريتا هاردن**"، وأحطناها بالغموض وزودناها بأوراق مزيفة لإيهام الخصوم بأنها "**هيلين شيل**"، ونجحت الحيلة..

– هل صحيح أنني كنت تحت حراسة أعوانك طوال الوقت؟

– نعم. والواقع أننا ارتبنا في نشاط "**إدوارد**" قبل أن يغادر "**لندن**"، ولما رويت لي قصتك عقب مصرع "**كارمايكل**" لم أجد وسيلة للمحافظة على حياتك أفضل من إلحاقك بالعمل معي.. وكان رأيي في ذلك أن "**إدوارد**" متى عرف صلتك بي، فإنه سوف يبقي عليك ليضللنا بالمعلومات الزائفة التي يفضي بها إليك وهو يعلم أنك ستنقلينها إلينا. ولكن موقفه حيالك تغير تماما إذ وجد أنك اكتشفت أن أحد أعوانه انتحل شخصية السيد "**روبرت**" فقرر تصفيتك.

– إنني أشعر برعدة كلما فكرت في المآزق التي تورطت فيها.. فابتسم "**داكن**" وقال:

– في استطاعتك الآن أن تطمئني.. فقد اعتقلنا "**إدوارد**" وأعوانه جميعا..

– والدكتور "**راتبون**"؟

– إنه أطاع "**إدوارد**"، خوفا من الفضيحة.. ولكنه اعترف بالاختلاس، وعبَّر عن أسفه واستعداده للتكفير عن أخطائه.

– أعلم أنه ليس من حقي أن أسأل. ولكني أريد أن أعرف هل أوفدت أحدا ليحضر شملة "**كارمايكل**"؟

– كانت الشملة متممة للوثيقة التي دسها "**كارمايكل**" في جيب "**ريتشارد**

بيكر" . ففي الشملة وجدنا اسم الشيخ "**حسن الزيارة**"، وفي الوثيقة وجدنا كلمة السر. أو بيت الشعر الذي بمقتضاه أعطانا الشيخ حزمة الأفلام.

– أليس من المصادفات العجيبة أن يكون نصف السر معي ونصفه الآخر مع "**ريتشارد بيكر**"؟ فابتسم "**داكن**" وقال:

– بهذه المناسبة. هل لي أن أسألك ماذا في نيتك أن تفعلي الآن؟

– سأبحث عن عمل.. وبسرعة..

– لا تجهدي نفسك في البحث. يخيل إليّ أن هناك عملا في انتظارك.. وتركها ومضى، وعلى شفتيه ابتسامة غامضة. وما هي إلا لحظة حتى أقبل "**بيكر**" وجلس في المقعد الذي تركه "**داكن**" في التو واللحظة.. قال:

– أصغي إليّ يا "**فيكتوريا**".. لقد علمنا أن "**فيرونيكا سافيل**" أصيبت بمرض يمنعها من الحضور. فهل تعودين أنت للعمل معنا؟

– أتريدونني حقًّا؟

– سنكون سعداء إذا وافقت..

– إنني أوافق بكل سرور.

– إذن لم يبقَ إلا أن تعدي حقائبك.. هلمي بنا..

*****

قال الدكتور "**بونسفوت**" حالما رآها:

– أهذه أنت يا "**فيرونيكا**"؟ لقد أصيب "**ريتشارد**" بخبل بعد رحيلك.. ولكن كل شيء قد انتهى الآن وإني لأرجو لكما السعادة والتوفيق. فنظرت "**فيكتوريا**" إلى "**ريتشارد**".. ونظر "**ريتشارد**" إليها واحمرَّ وجهاهما..

تمّت بعون الله